

الباب الثالث

أ. معنى الإعتصام

١. معنى الإعتصام في اللغة:

قال ابن فارس: العين والصاد والميم أصل واحد صحيح يدل على إمساك ومنع وملازمة. والمعنى في ذلك كله معنى واحد، ومن ذلك العصمة: أن يعصم الله تعالى عبده من سوء يقع فيه، واعتصم العبد بالله تعالى اذا امتنع. واستعصم: التجأ. وقال العرب: أعصمت فلانا اي هيأت له شيئاً يعتصم بما نالته يده اي يلتجئ ويتمسك به. قال النابغة: يظل من خوفه الملاح معتصماً، بالخيزرانة من خوف ومن رعد.^١

والإعتصام: الإستمسك بالشيئ، ومنه قول أبي طالب: ثمال اليتامى عصمة الأرامل اي يمنعهم من الضياع والحاجة، وثمال اليتامى: مطعمهم وعمادهم أو ظلمهم، وقيل مطعمهم في الشدة. والعصمة: المنع، واعتصم فلان بالله اذا امتنع به. والعصمة: حفظ، وعصم إليه: اعتصم به، وأعصمه:

^١أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، معجم مقاييس اللغة، (د.م)، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م)، ج: ٤، ٣٣١. انظر أيضا صالح بن عبد الله بن حميد، موسوعة نضرة التميم، ج: ٢، ٤١٠.

هَيَّأَهُ شَيْئًا يَعْتَصِمُ بِهِ، وَأَعْتَصِمَ بِالْفَرَسِ: اِمْتَسَكَ بِعَرَفِهِ. قَالَ الزَّجَّاجُ: أَصْلُ الْعَصْمَةِ أَيُّ الْحَبْلِ، وَكُلُّ مَا أَمْسَكَ شَيْئًا فَقَدْ عَصَمَهُ، وَأَعَصَمَ الرَّجُلُ بِصَاحِبِهِ إِعْصَامًا إِذَا لَزِمَهُ.^٢

وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو: الْعَصِيمُ: بَقِيَّةُ كُلِّ شَيْءٍ وَأَثَرُهُ مِنَ الْقَطْرَانِ وَالْحِضَابِ وَنَحْوِهِ. وَالْعُصْمُ بِالضَّمِّ مِثْلُهُ. قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: سَمِعْتُ أَعْرَابِيَّةً تَقُولُ لِحَارَتِهَا: أَعْطَيْتَنِي عَصَمَ جَنَاحِكَ، أَيُّ مَا سَلَتْ مِنْهُ. وَالْعِصْمَةُ: الْمَنْعُ. يُقَالُ: عَصَمْتُ الطَّعَامَ، أَيُّ مَنَعْتَهُ مِنَ الْجُوعِ. وَأَبُو عَاصِمٍ: كُنْيَةُ السَّوَيْقِ. وَأَمَّا قَوْلُ الرَّاجِزِ: أُرْجِدَ رَأْسُ شَيْخَةٍ عَيْصُومٍ * فَيُقَالُ: هِيَ الْإِكْوَالُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَرُويهِ بِالضَّادِ مَعْجَمَةً. وَالْعِصْمَةُ: الْحِفْظُ. يُقَالُ: عَصَمْتُهُ فَاَنْعَصَمَ. وَاعْتَصَمْتُ بِاللَّهِ، إِذَا امْتَنَعْتَ بِلُطْفِهِ مِنَ الْمَعْصِيَةِ. وَعَصِمَ يَعْصِمُ عَصْمًا: اِكْتَسَبَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى قَالَ سَعَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ^٣ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ^٤ وَحَالَ

بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ (هود/ ١١: ٤٣) أَيُّ يَجُوزُ أَنْ يَرَادَ لَا مَعْصُومًا،

أَيُّ لَا إِذَا عَصِمَتْ، فَيَكُونُ فَاعِلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ. وَالْعِصْمَةُ أَوْ الْعِصْمَةُ الْقَلَادَةُ، وَالْجَمْعُ الْأَعْصَامُ. قَالَ لَبِيدٌ: حَتَّى إِذَا يَأْسُ الرَّمَاةُ وَأَرْسَلُوا غَضْفًا دَوَاجِنَ قَافِلًا أَعْصَامَهَا، وَالْمَعْصَمُ: مَوْضِعُ السِّوَارِ مِنَ السَّاعِدِ. وَالْغَرَابُ الْأَعْصَمُ: الَّذِي فِي جَنَاحِهِ رِيشَةٌ بِيضَاءٌ لِأَنَّ جَنَاحَ الطَّائِرِ بِمِثْرَةِ الْيَدِ لَهُ. وَيُقَالُ: هَذَا

^٢تحمّد بن مكرّم بن علي، لسان العرب، ج: ١٢، ٤٠٤. انظر أيضا صالح بن عبد الله بن حميد، موسوعة نضرة التميم، ج:

كقولهم: الأبلقُ العقوقُ، وبيّضُ الأنوقِ، لكلِّ شئٍ يعز وجوده. قال الاصمعي: الأَعْصَمُ من الظباء والوعول: الذي في ذراعيه بياض.

وقال أبو عبيدة: الذي بإحدى يديه بياضٌ. والاسم العُصْمَةُ. والوعولُ عُصْمٌ. وعترُ عصماء. وإذا كان بإحدى يدي الفرس بياض قل أو كثر فهو أعصم اليمنى أو اليسرى، وإن كان بيديه جميعا فهو أعصم اليدين، إلا أن يكون بوجهه وضح فهو محجل ذهب عنه العصم. وإن كان بوجهه وضح وإحدى يديه بياض فهو أعصم، لا يوقع عليه وضح الوجه اسم التحجيل إذا كان البياض بيد واحدة. والعصام: رباط القربة وسيرها الذي تُحمل به. قال الشاعر أبو كبير: وقربية أقوام جعلتُ عصامها على كاهلٍ مني ذلولٍ مُرحَلٍ. قال ابن السكيت: أعصمتُ القربة: جعلت لها عصاماً. وأعصمتُ فلاناً، إذا هيأت له في الرحل أو السرج ما يعتصمُ به لئلا يسقط. وأعصمَ، إذا تشديد واستمسك بشئ خوفاً من أن يصرعه فرسه أو راحلته. قال الشاعر: كِفْلُ الفروسةِ دائمُ الإِعصامِ، وكذلك اعتصمَ به واستعصمَ به. وأعصمَ الرجلُ بصاحبه: لزمه. وقولهم: ما وراءك يا عصام؟ هو اسم حاجب النعمان بن المنذر. وفي المثل: كُنْ عِصامِيًّا ولا تكن عظاميًّا، يريدون به قوله: نَفْسُ عِصامٍ سَوَدَتْ عِصاماً وَعَلَّمَتْهُ الكَرَّ والإقداما وصَيْرَتْهُ مَلِكاً هُمَاماً والعواصم: بلاد قصبته أنطاكية.^٣

٢. معنى الإعتصام في الإصطلاح العلوم القرآن:

^٣ أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفاراب، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، (بيروت، دار العلم للملايين،

اجتماع المسلمين على الاستعانة بالله والوثوق به وعدم التفرق عنه، والاجتماع على التمسك بعهدته على عباده وهو الإيمان والطاعة او الكتاب والسنة لأن من أطاع الرسول فبفرض الله ذلك في كتابه كما قال الله تعالى: **مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ^ط وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا**

أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ (النساء/ ٤: ٨٠).^٤

تقاربت معاني الاعتصام في الاصطلاح عند المفسرين كما تقاربت عند اللغويين ويظهر ذلك جلياً من خلال المعاني الاصطلاحية الآتية: الإمام الشوكاني يعرف الاعتصام بقوله: الاعتصام بالله التمسك بدينه وطاعته والوثوق بوعده.^٥ ويعرف الإمام الزمخشري الاعتصام بقوله: التمسك بدينه والالتجاء إليه في دفع شرور الكفار ومكايدهم.^٦

أما الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور فيجمع بين التعريف اللغوي والاصطلاحي للاعتصام فيقول: الاعتصام افتعال من عصم وهو طلب ما يعصم أي يمنع وذلك بالاجتماع على هذا الدين

^٤علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات، ٥٦٠. انظر أيضا صالح بن عبد الله بن حميد، موسوعة نضرة التعميم، ج: ٢، ٤١٠.

^٥محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، (دمشق، دار الكلم الطيب، ٥١٤١٤)، ٤٢٠.

^٦أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، (بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ-)، ٣٨٥.

وعدم التفرق ليكتسبوا باتحادهم قوة ونماء.^٧

فمن خلال هذه المعاني يتبين لنا أن الإعتصام في الاصطلاح يأتي بمعنى التمسك بالدين والوثوق بوعد الله والالتجاء إليه في دفع شرور الكفار ومكائدهم. وعند النظر في العلاقة بين التعريف اللغوي والاصطلاحي للفظة الاعتصام يتبين لنا أن المعنى الاصطلاحي يمثل جزءاً من المعاني اللغوية لهذه اللفظة، ولا غرابة في ذلك فالقرآن قد نزل بلغة العرب وذلك تصديقاً

لقوله تعالى: **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴿٢١٢﴾ (يوسف / ١٢ : ٢).^٨

العصمة على ما اختاره العدلية هي اللطف المانع للمكلف من ترك الواجبات وفعل المحرمات، يفعلها الله به غير سالب للقدرة على خلاف مقتضى ذلك اللطف، والآ لم يكن مكلفاً ولم يستحق مدحا ولا ثوابا، بل ذلك اللطف موجب لسلب الداعية المستلزمة لأحدهما، وهذا حاصل ما قرروه في قواعدهم. وعند الأشاعرة: العصمة لا يخلق الله في المعصوم ذنبا، ولأجل غرض لهم في ذلك كما يأتي خصه بكونه من الكبائر، كالكفر وسائر الكبائر، ومن الصغائر الذّالة على الخسة والردّالة كسرقة حبة او لقمة مما ينسب فاعله الى الدّناءة والخسة والردّالة، وذلك بناء على أصلهم من استناد جميع الأشياء كلّها الى القادر المختار. وعند الحكماء العصمة: ملكة تمنع الفجور، ناشئة من العلم بمثالب المعاصي ومناقب الطّاعات، وتتأكد في الأنبياء بتتابع الوحي اليهم بالأوامر الدّاعية الى ما ينبغي،

^٧ محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، (د.م)، دار التونسية للنشر تونس، ١٩٨٤م،

^٨ محمود هاشم عنبر، الاعتصام بحبل الله بين الواقع والمبشرات، (د.م)، ط. ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، ٥.

والنواهي الزاجرة عما لا ينبغي. وعلى تعريف العدالة بأن العصمة تستلزم سلب الداعي الذي هو الميل والإرادة لا سلب القدرة معه، إنما يتم على رأي من يقول: إن القدرة لا يدخل في مفهومها الإرادة، وإنما هي الصفة التي بها يقع التأثير عند انضمام الإرادة إليها كما هو الحق في المسألة لأن الإرادة داعي القادر الى الفعل الذي هو التأثير.^٩

٣. معنى الإعتصام في القرآن:

الآية في الإعتصام لفظياً:

الآية الأولى، قال تعالى: يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا
 الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ
 اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ^{١٠} وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَتَأَيُّهَا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ءَ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَأَعْتَصِمُوا
 بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا^{١١} وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ
 قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِّنْهَا^{١٢}
 كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ (ال عمران/ ٣: ١٠٠ - ١٠٣).

^٩ احمد بن زين الدين الأحسائي، كتاب العصمة، (بيروت، مؤسسة شمس هجر، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م)، ٣٥ - ٣٦.

هذه الآية صريحة في ذمّ التفرّق والإختلاف المذموم، وهي أكثر الآيات تداولاً بين المسلمين في حثّ بعضهم بعضاً على جمع كلمتهم ونبذ الفرقة. قوله تعالى: "ومن يَعْتَصِم بِاللَّهِ" أي يمتنع بالله، وأصل العَصْمَة: المنع، ومنه يقال: عصمه الطعام أي منعه من الجوع. قوله تعالى: "وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ" أي بدينه أي وعهده. قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقاً" الآية (آل عمران/ ٣: ١٠٠).

أخرج الواحد عن عكرمة قال: كان بين هذين الحيين من الأوس والخزرج قتال في الجاهلية، فلما جاء الإسلام اصطلحوا وألف الله قلوبهم، وجلس يهودي في مجلس فيه نفر من الأوس والخزرج فأنشد شعراً قاله أحد الحيين في حربهم فكأنهم دخلهم من ذلك، فقال الحيين الآخرون: قد قال شاعرنا في يوم كذا وكذا، فقال الآخرون وقد شاعرنا في يوم كذا وكذا، فقالوا: نرد الحرب جذعاً كما كانت فنادى هؤلاء بالأوس، ونادى هؤلاء يا للخزرج فاجتمعوا وأخذوا السلاح واصطفوا للقتال، فترلت هذه الآية فجاء النبي صلى الله عليه وسلم حتى قام بين الصفيين فقرأها ورفع صوتها فلما سمعوا صوته أنصتوا له وجعلوا يستمعون، فلما فرغ القوا السلاح وعانق بعضهم بعضاً وجعلوا ييكون. وقال زيد بن أسلم: مرشاش بن قيس اليهودي وكان شيخاً قد عاش في الجاهلية عظم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم، فمر على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج في مجلس جمعهم يتحدثون فيه فغاظه ما رأى من جماعتهم وألفتهم وصلاح ذات بينهم في الإسلام بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة، فقال: قد اجتمع ملاً

بني قبيلة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا بها من قرار فأمر شابا من اليهود كان معه فقال: اعمد اليهم فأجلس معهم ثم ذكرهم بعث وما كان فيه، وأنشدهم بعض ما كانوا يتناولوا فيه من الأشعار، وكان بعث يوم اقتتل في الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج ففعل فتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا حتى تواتب رجلان من الحيين، أويس بن قبطي أحد بني حارثة من الأوس وجابر بن صخر أحد بني سلعة من الخزرج فتناولوا، فقال أحدهما: إن شئت رددتها الآن جذعة، وغضب الفريقان جميعا وقالوا ارجعاهات السلاح، السلاح موعدكم الظاهرة وهي حرة فخرجوا إليها فانضمت الأوس والخزرج بعضها الى بعض على دعواهم التي عليها في الجاهلية، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج اليهم فيمن كان معه من المهاجرين حتى جاءهم فقال: "يا معشر المسلمين أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد ان اكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم فترجعون الى ما كنتم عليه كفارا؟ الله الله"، فعرف القوم انها نزغة من الشياطين، وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح من أيدهم وبكوا وعانق بعضهم بعضا ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين.

قوله تعالى: "وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله" إلى "فأنقذكم منها" الآية (آل عمران/ ٣: ١٠١ - ١٠٣)، أخرج الواحد عن ابن عباس قال: كان بين الأوس والخزرج شر في الجاهلية فذكروا ما بينهم فثار بعضهم الى بعض بالسيوف، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر له،

فذهب اليهم فترلت اليهم فترلت هذه الآية وقوله تعالى: "واعتصموا بجلل الله جميعا ولا تفرقوا" (آل عمران/ ١٠٣٣).

حدثنا ابو كريب قال: ثنا حسن بن عطية قال: ثنا قيس بن الربيع عن الأعز ابن الصباح عن خليفة بن حصين عن ابي نصر عن ابن عباس قال: كانت الأوس والخزرج بينهم حرب في الجاهلية كل شهر، فبينما هم جلوس اذ ذكروا ما كان بينهم حتى غضبوا، فقام بعضهم الى بعض بالسلاح، فترلت هذه الآية.^{١٠}

الآية الثانية، قال تعالى: **إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا** ﴿١٤٥﴾ **إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ** ^ط **وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴿١٤٦﴾ (النساء/ ٤: ١٤٥ - ١٤٦).

وروى ابن جرير وابن أبي شيبه، من حديث أبي سعيد عنه عليه السلام أنه قال: كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض. فقاعدة ما تقدم وطراره البراق هو العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم العمل بهما في كل شيء، عقيدة وعبادة وأحكاما وأخلاقا، كما

^{١٠} عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تفسير غريب القرآن، (بيروت، دار الكتب العلميّة، ١٣٩٨ - ١٩٧٨م)، ١٠٨. انظر أيضا عطية بن عطية الأجهوري، إرشاد الرحمن لأسباب التزول والناسخ والمنسوخ والتنشابه وتجويد القرآن، (المغرب، دار إين حزم، ٢٠٠٩م)، ج: ١، ١٦٠ - ١٥٨. انظر أيضا آدم بمبا، أسماء القرآن، (د.ط، ٢٠٠٩م)، ١٧٨ - ١٧٩. انظر أيضا صالح بن عبد الله بن حميد، موسوعة نضرة التعميم، ج: ٢، ٤١٢. انظر أيضا أبي جعفر بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل اي القرآن، (القاهرة، بدر هجر، ١٤٢٢هـ)، ج: ٥، ٦٣٦.

قال تعالى في هذه الآية. واليوم وبعد اليوم إذا أراد المسلمون المجد والمفاخر، والرّاحة والطمأنينة والحياة الطيبة والعيش والرغد، والتأييد والعزى والنصر، والسيادة والقيادة في الدنيا والسّعادة في الآخرة، فعليهم أن يعملوا بكتاب رهم وسنة نبيهم محمد صلى الله عليه والسلام، هذا هو عنوان الإعتصام بالله وبجبل الله، وهذا هو الذي به ينتصر المسلمون على اليهود من أعداء الإسلام والمسلمين.

وكلّ دعاية وإن ارتفع صوتها، وكلّ محاولة بذلت لجمع كلمة المسلمين وتوحيد صفوفهم فهي فاشلة، والواقع شاهد بهذا فلا بدّ من اتفاق المسلمين في كلّ زمان ومكان على العقيدة الصحيحة، والإسلام الصحيح، هذا هو الذي به الإتفاق والوفاق، والتكاتف والتساند بين المسلمين. هذا هو الذي به تتلاشى الأحقاد والضغائن، وتزول به العداوة، هذا هو الذي به الأخوة الإيمانية والرّابطة الإسلاميّة، هذا هو الذي به الإعتصام بجبل الله، هذا هو الذي به تتآلف القلوب على التقوى. وهذا هو منقذ البشرية من الوقوع في هوة مظلمة سحيقة، الإيمان والإسلام الصحيح هو الذي به عز المسلمين ونصرهم في الدّنيا وسعادتهم في الآخرة، وعنوان ذلك هو الإعتصام بالله، والإعتصام بجبل الله هذا هو المنقذ من كلّ شر ومحنة وفتنة وهلاك. والعمل بكتاب الله وسنة رسوله هو منقذ البشريّة من شرورها المستطيرة، وهذا هو منقذ صحابة الرسول والتابعين لهم بإحسان من

الوقوف في حفرة من نار السعير. والى الدعاة والمرشدين والمحبين اليهم جميعا، البيان والبرهان والإمتنان من الله تعالى.^{١١}

وروي عن أبي هريرة وعن عبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم قالوا: المنافقون في الدرك الأسفل من النار في توابيت من النار تقفل عليهم. ثم استثنى عز وجل التائبين من المنافقين ومن شروط التائب أن يصلح في قوله وفعله، ويعتصم بالله أي: يجعله منعه وملجأه ويخلص دينه لله تعالى والا فليس بتائب. وقال حذيفة بن اليمان بحضرة عبد الله بن مسعود: "والله ليدخلن الجنة قوم كانوا منافقين"، فقال عبد الله بن مسعود: وما علمك بذلك؟ فغضب حذيفة وتنحى، فلما تفرقوا مرّ به علقمة فدعا وقال: أما إن صاحبكم يعلم الذي قلت، ثم تلا "إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا" الآية. وأخبر الله تعالى أنهم مع المؤمنين في رحمة الله، وفي منازل الجنة، ثم وعد المؤمنين الأجر العظيم.^{١٢}

قوله تعالى: "إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار" وهو الطبقة التي في قعر جهنم، وإنما كان كذلك لأنهم أخبث الكفرة إذ ضموا إلى الكفر إستهزاء بالإسلام وخداعا للمسلمين، وأما قوله عليه الصلاة والسلام: "ثلاث من كن فيه منافق وان صام وصلى وزعم انه مسلم فهو من اذا حدث كذب، واذا وعد أخلف، واذا ائتمن خان" ونحوه فمن باب التشبيه والتغليظ، وإنما سميت طبقاتها السبع دركات لأنها متداركة متتابعة بعضها فوق بعض.^{١٣}

^{١١} صالح بن إبراهيم البلهي، الهدى والبيان في أسماء القرآن، (د.م، د.ط، ٥١٤٠٣)، ج: ٢، ٥٤ - ٥٥. انظر أيضا صالح، موسوعة نضرة التعميم، ج: ٢، ٤١٢.

^{١٢} أبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير القرآن، (دمشق، دار الخير، ٥١٤٢٨)، ج: ٣، ٥٣.

^{١٣} ناصر الدين أبي سعيد عبد الله البيضاوي، تفسير البيضاوي، (بيروت، دار صادر، ٢٠٠١م)، ج: ١، ٢٤٨.

الآية الثالثة، قال تعالى: يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيَدْخُلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ (النساء/ ٤: ١٧٤ - ١٧٥)

قوله تعالى: "برهان" اي حجة ودليل، قوله تعالى "نورا مبينا" اي نورا واضح وهو القرآن، قوله تعالى: "واعتصموا به" اي لجأوا الى الله في أن يعصمهم، قوله تعالى: "وفضل" اي احسان. قوله تعالى: "اليه صراطا" الغريب: ذا صراط، فحذف المضاف، ونصب على الحال من الضمير.

هذه الآية إشارة الى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، والبرهان: الحجة النيرة الواضحة التي تعطي اليقين التام. والمعنى: قد جاءكم مقتربا بمحمد برهان من الله تعالى على صحة ما يدعوكم اليه، وفساد ما انتم عليه من النحل. وقوله تعالى: "وانزلنا اليكم نورا مبينا" يعني القرآن، فيه بيان كل شئ وهو الواعظ الزاجر، الناهي الأمر.

ثم وعد تبارك وتعالى المؤمنين بالله المعتصمين به، والضمير في "به" يحتمل ان يعود على القرآن الذي تضمنه قوله تعالى: "نورا مبينا" اي والإعتصام به: التمسك بسببه، وطلب النجاة والمنعة به، فهو يعصم كما تعصم المعامل، وهذا قد فسره قول النبي صلى الله عليه وسلم: "القرآن جبل الله المتين، من تمسك به عصم"، والفضل: الجنة ونعيمها. قوله تعالى: "ويهديهم" اي الى الفضل، وهذه هداية طريق الجنان، كما قال تعالى: "سيهديهم ويصلح بالهم" اي لأن هداية الإرشاد قد تقدمت وتحصلت حين آمنوا بالله تعالى واعتصموا بكتابه. وقوله تعالى: "صراطا" نصب بإضمار فعل يدل

عليه "يهديهم" تقديره: فيعرفهم، ويحتمل ان ينتصب كالمفعول الثاني اذ "يهديهم" في معنى: يعرفهم، ويحتمل ان ينتصب على ظرفية ما، ويحتمل ان يكون حالا من الضمير في "اليه"، وقيل: من "فضل" والصراط: الطريق، وقد تقدم تفسيره غير مرة.^{١٤}

الآية الرابعة، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ^ج وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ^ك إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ

﴿٧٧﴾ (المائدة/ ٥: ٦٧).

ان تركت ابلاغ بعضها، يحبط ابلاغ ما بلغت. الغريب: الدعوة بمثلة الصلاة اذا نقص ركن من اركانها بطل الجميع.

وقوله تعالى: "يعصمك من الناس" اي يمنعك عنهم فلا يقدر عليك، وعصمة الله جل وعز للعبد من هذا انما هي منعه من المعصية.

وقوله تعالى: يعصمك من الناس" اي يمنعك عنهم، وعصمة الله انما هي منعه العبد من المعاصي. ويقال: هذا طعام لا يعصم اي لا يمنع من الجوع.

^{١٤} محمود بن حمزة الكرماني، غرائب التفسير وعجائب التأويل، (بيروت، مؤسسة علوم القرآن، ١٤٠٣ - ١٩٨٣م)، ٣١٣. انظر أيضا شعبان محمد اسماعيل، الهادي الى تفسير غريب القرآن، (د.م، مكتبة جعفر الحديثة، د.ت)، ٧٧. انظر أيضا صالح بن عبد الله بن حميد، موسوعة نضرة التعميم، ج: ١٢، ٤١٢. انظر أيضا أبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير القرآن، ٥٠٢ - ٥٠٣.

وقوله تعالى: "ياايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك"، قال الحسن: ان نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: لما بعثني الله برسالته ضقت بها ذرعا وعرفت ان من الناس من يكذبي، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهاب قريشا واليهود والنصارى، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وأخرج ابن حبان في كتابه "صحيح ابن حبان" عن ابي هريرة قال: كنا اذا صحبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تركنا له أعظم شجرة واطلها فيتزل تحتها، فتزل ذات يوم تحت شجرة وعلق سيفه فجاء رجل واخذه وقال: يا محمد من يمنعك مني؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله يمنعني منك ضع السيف، فوضعه فتزلت: "والله يعصمك من الناس".^{١٥}

الآية الخامسة، قال تعالى: قَالَ سَعَاوَى إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ۗ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ (هود/ ١١: ٤٣).

قال تعالى: "لا عاصم اليوم من امر الله" اي مانع. وفي الإستثناء، احدهما: انه منقطع لأن من رحم معصوم، والمفعول ليس من جنس الفاعل، ومحل "من" نصب، والثاني: متصل تقديره: "لا عاصم اليوم من امر الله الا الله"، ومحل "من" رفع وهو الغريب، وقيل: "من رحم" اي نوح، وقيل: "لا عاصم" بمعنى لا اذا عصمة الا من رحم الله.

^{١٥} محمود بن حمزة الكرماني، غرائب التفسير وعجائب التأويل، ٣٣٤. انظر أيضا شهاب الدين الهائم، التبيان في تفسير غريب القرآن، (بيروت، دار الغريب الإسلامي، ٥١٤٢٣)، ١٥٣. انظر أيضا عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تفسير غريب القرآن، ١٤٥. انظر أيضا عطية بن عطية الأجهوري، إرشاد الرحمن لأسباب النزول والناسخ والمنسوخ والمتشابه وتجويد القرآن، ٢٥٢.

ولا وجه لهذه الأقوال التي حكيناها عن هؤلاء، لأن كلام الله تعالى ذكره إنما يوجه الى الأفصح الأشهر من كلام من نزل بلسانه، ما وجد الى ذلك سبيل. ولم يضطرنا شئ الى ان نجعل عاصما في معنى معصوم، ولا ان نجعل "الا" بمعنى "لكن"، اذ كنا نجد لذلك في معناه الذي هو معناه في المشهور من كلام العرب مخرجا صحيحا، وهو ما قلنا من ان معنى ذلك: قال نوح: لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحمتنا، فأنجانا من عذابه، كما يقال: لا منجى اليوم من عذاب الله الا الله، ولا مطعم اليوم من طعام زيد الا زيد. فهذا هو الكلام المعروف، والمعنى المفهوم.^{١٦}

الآية السادسة، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرُلَهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَأَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَأَمَّا رَأَيْتهُنَّ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاَسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَكُفَّنَّ لِي لِحَبَّتِي وَإِيَّاكُمْ لَمِثْلِي ﴾ (يوسف / ١٢ : ٣٠ - ٣٢).

قوله تعالى: "فتاها" مملوكها، والعرب تسمى المملوك فتى ولو كان شيخا. قوله تعالى:

"شَغَفَهَا حُبًّا" أي أصاب حبه شغاف قلبها كما تقول كبده، إذا أصاب كبده، ورأسه، إذا أصاب

^{١٦} محمد ابن اسماعيل الأمير الصنعاني، تفسير غريب القرآن، (دمشق، دار ابن كثير، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م)، ٢٣١. انظر أيضا محمود بن حمزة الكرماني، غرائب التفسير وعجائب التأويل، ٥٠٧. انظر أيضا شهاب الدين الهائم، التبيان في تفسير غريب القرآن، ١٨٩. انظر أيضا صالح بن عبد الله بن حميد، موسوعة نضرة التعميم، ج: ٢، ٤١٢. انظر أيضا أبي جعفر بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل اي القرآن، ج: ١٢، ٤١٨.

رأسه. والشَّعَاف: غلاف القلب، ويقال: حَبَّة القلب، وهي علقة سوداء في صميمه. وشعفها حَبًّا: ارتفع حَبُّه إلى أعلى موضع من قلبها، مشتق من شعاف الجبال أي رؤوسهن. وقولهم: فلان مشعوف بفلان: أي ذهب به الحبُّ أقصى المذاهب. قوله تعالى: "وَأَعْتَدَتْ" أي وأعدت من العتيد وهو المعدُّ لهن. قوله تعالى: "مُتَّكِّئًا" نمرقا يتكأ عليه، وقيل: مجلسا يتكأ فيه، وقيل: طعاما. وقرئت مُتَّكِّئًا وهو الأترج. والمتكأ: الأترج بلغة توافق لغة القبط.

وقيل البزماورد. والبزماورد أعجمي، وقد يعرَّب فيقال فيه إذا عربَّ الزمَّاورد. قوله تعالى: "أَكْبَرَنَّهُ" أعظمته. قوله تعالى "حاشى لله" وحاشَ لِلَّهِ، قال المفسِّرون: معاذ الله. وقال اللغويون في حاشَ لِلَّهِ له معنيان: التَّزْيِيه والاستثناء واشتقاقه من قولك كنت في حشى فلان، أي في ناحيته، ولا أدري أيَّ الحشى آخذ، أي أيَّ الناحية آخذ، قال الشاعر:

يقول الذي أمسى إلى الحزن أهله بأيَّ الحشى أمسى الخليلت المباين

وقولهم: حاشى فلانا معناه أعزل فلانا من وصف القوم بالحشى ولا أدخله فيهم وفي جملتهم يعني من نحو قولك: قام القوم حاشى فلانا، ويقال: حاشى لفلان وحاشى فلانا وحاشى فلان، فمن نصب أضمر في حاشى مرفوعا، والتقدير: حاشى فعلهم فلانا، ومن خفض فبإضمار اللام لطول صحبتها حاشى. وجواب آخر: لما خلت من الصاحب أشبهت الاسم فأضيفت إلى ما بعدها. والتَّحْقِيقُ أنَّ إنَّ نصبت كانت فعلا، وإنَّ خفضت كانت حرف جرّ.

وقال الزمخشري: قصدت بتلك الهيئة وهي قعودهن متكأت، والسكاكين في أيديهن أي ان يدهشن ويبهتن عند رؤيته، ويشغلن عن نفوسهن فتقع أيديهن على أيديهن فيقطعنها لأن المتكى اذا بهت لشيء وقعت يده على يده فتبكنهن بالحجة، وقد كان ذلك قال تعالى في هذه الآية.^{١٧}

الآية السابعة، قال تعالى: وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۗ هُوَ اجْتَبَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۗ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۗ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۗ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ (الحج/ ٢٢: ٧٨).

وهذه الآية أمر الله تعالى عباده أن يعتصموا به والأمر يقتضي الوجوب. قال الإمام عطية الأجهوري: هذه الآية منسوخة بالآية: يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنُتُمْ بِيَدَيْنِ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيَمْلِكْ وَلِيَّهُ

^{١٧} شهاب الدين الهاتم، التبيان في تفسير غريب القرآن، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٦٣)، ١٩٦ - ١٩٧. انظر أيضا صالح بن عبد الله بن حميد، موسوعة نضرة التعميم، ج: ٢، ٤١٢. انظر أيضا محمد جمال الدين القاسمي، تفسير القاسمي، (م.د)، دار احياء الكتب العربية، (١٣٧٦هـ)، ج: ٩، ٣٥٣٥.

بِالْعَدْلِ^ج وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رَجَالِكُمْ^ط فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ
مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى^ج وَلَا
يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا^ج وَلَا تَسْمُومُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ^ج
ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمٌ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا^ط إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجْرَةً
حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا^ط وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ^ج
وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ^ج وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ^ط وَاتَّقُوا اللَّهَ^ط وَيَعْلَمُكُمْ
اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ (البقرة / ٢ : ٢٨٢) او قال تعالى: إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ
صَغَتْ قُلُوبُكُمَا^ط وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ^ط
وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿١٦﴾ (الطلاق: ١٦)، والمختار احكامها وهو بيان لوفاء الله.

وهذه الآية من المتشابهة وهو ان قلت: كيف لا حرج فيه مع ان قطع يد بسرقة ربع دينار،

ورجم محصن بزنا مرة ووجوب صوم شهرين متتابعين بإفساد يوم من رمضان بوطء ونحو ذلك؟

قلت: المراد بالدين التوحيد ولا حرج فيه تخفيف فإنه يكفر ما قبله من الشرك وان امتد ولا يتوقف

الإتيان به على زمان او مكان معين او ان كل ما يقع فيه الإنسان من المعاصي يجد له مخرجا في الشرع بتوبة او كفارة او رخصة او المراد نفي الحرب الذي كان في زمان بني إسرائيل.^{١٨}

الآية الثمانية، قال تعالى: **يَوْمَ تُولُونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِّنْ عَاصِمٍ^ق وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ^ح** (المؤمن او الغافر / ٤٠ : ٣٣).

قال محمد بن عبد العزيز الخضير، قوله تعالى: "مدبرين" اي هارين، وقوله تعالى: "عاصم" اي مانع يمنعكم.

حدثنا به أبو كريب قال: ثنا عبد الرحمن بن محمد المخاري عن اسماعيل بن رافع المدني عن يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي عن رجل من الأنصار عن ابي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يأمر الله اسرافيل بالنفخة الأولى فيقول: انفخ نفخة الفزع، ففزع أهل السماوات وأهل الأرض الا من شاء الله، ويأمره الله فيديمها ويطولها فلا يفتروا وهي كما قال تعالى: **وَمَا يَنْظُرُ هَتُؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ^ح** (ص / ٣٨ : ١٥). فيسير الله

الجبال فتكون سرايا فترج الأرض بأهلها رجا كما قال الله تعالى: **يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ^ح**

^{١٨}صالح بن إبراهيم البلهي، الهدى والبيان في أسماء القرآن، ج: ٢، ٥٨. انظر أيضا صالح، موسوعة نضرة التعميم، ج: ٢، ٤١٢. انظر أيضا عطية بن عطية الأجهوري، إرشاد الرحمن لأسباب التزول والناسخ والمنسوخ والمتشابه وتجويد القرآن، ٤٩٨ - ٤٩٥.

تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ (النازعات / ٧٩: ٦ - ٨). فتكون كالسفينة

المرنقة في البحر، تضربها الأمواج تكفاً بأهلها او كالقنديل المعلق بالعرش ترجه الأرواح، فيميد الناس على ظهرها، فتذهل المراضع، وتضع الحوامل، وتشيب الولدان، وتطير الشيطان هاربة حتى تأتي الأقطار، فتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها فترجع، ويولى الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضا كما قال تعالى في هذه الآية. ١٩

الآية التاسعة، قال تعالى: يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۗ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۚ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۚ وَءَاتُوهُنَّ مَّا أَنفَقُوا ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسْئَلُوا مَّا أَنفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ۗ تَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ (المتحنة/ ٦٠: ١٠).

عن المسور بن مخزومة ومروان بن الحكم قالا: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية حتى اذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي صلى الله عليه وسلم: ان خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين"، فوالله ما شعر بهم خالد حتى اذا هم بقترة الجيش، فانطلق

^{١٩} محمد بن عبد العزيز الخضيري، السراج في بيان غريب القرآن، (الرياض، د.ط، ٥١٤٢٩ - ٢٠٠٨م)، ٢٥٨. انظر أيضا

أبي جعفر بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل اي القرآن، ج: ٢٠، ٣١٧ - ٣١٨.

يركض نذيرا لقريش، وسار النبي صلى الله عليه وسلم حتى اذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته، فقال الناس: حل حل فألحت، فقالوا خلأت القصواء، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حسبها حابس الفيل"، ثم قال: "والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمة الله الا اعطيتهم اياها"، ثم زجرها فوثبت قال: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمذ قليل الماء يتبرضه الناس تبرضا، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه، وشكى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم العطش، فانتزع سهما من كنانته، ثم أمرهم ان يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه.

فبينما هم كذلك، اذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة وكانوا عيبة نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم من اهل قمامة، فقال: اني تركت كعب وعامر بن لؤي نزلوا اعداد مياه الحديبية ومعهم العود المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: انا لم نجئ لقتال احد، ولكن جئنا معتمرين، وان قريشا قد هكثهم الحرب واضرت بهم، فان شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس، فإن اظهر فإن شاءوا ان يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، والا فقد جموا وان هم ابوا، فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على امري هذا حتى تنفرد سالفتي، ولينفذن الله امره"، فقال بديل: سأبلغهم ما تقول، قال: فانطلق حتى اتى قريشا قال: انا جئناكم من هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم ان نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حجة لنا ان نخبرونا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول، قال: سمعته يقول كذ

وكذا، فحدثهم بما قال النبي صلى الله عليه وسلم، فقام عروة بن مسعود فقال: اي قوم أستم بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: أولست بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا، قال أستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا عليّ جئتم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى، قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشداً قبلوها ودعوني آتة، قالوا: آتة فأتاه، فجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم نحواً من قوله لبيد.

فقال عروة عند ذلك: اي محمد! رأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وان تكن الأخرى، فإني والله لا أرى وجوهاً، وإني لأرى أشواباً من الناس خليفاً ان يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات، انحن نفر عنه وندعه؟ فقال: من هذا؟ قالوا: أبو بكر، قال: اما والذي نفسي بيده، لولا يد كانت لك عندي لم اجزك بما لأجبتك، قال: وجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم، فكلما تكلم كلمة أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي صلى الله عليه وسلم ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده الى لحية النبي صلى الله عليه وسلم، فرفع عروة رأسه فقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة، فقال: اي غدر! الست اسعى في غدرتك؟ وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم واخذ اموالهم، ثم جاء فأسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أما الإسلام فأقبل، واما المال فلست منه في شيء"، ثم ان عروة جعل يرمق اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعينه.

قال: فوالله ما تنخم رسول الله صلى الله عليه وسلم نخامة الا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، واذا أمرهم ابتدروا أمره، واذا توضع كادوا يقتتلون على وضوئه، واذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون اليه النظر تعظيما له، فرجع عروة الى أصحابه فقال: اي قوم والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله ان رأيت مليكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحابه رسول الله صلى الله عليه وسلم، والله ان ينتخم نخامة الا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه، واذا أمرهم ابتدروا أمره، واذا توضع كادوا يقتتلون على وضوئه، واذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون اليه النظر تعظيما له، وانه قد عرض عليكم خطة رشد فأقبلوها، فقال رجل من كنانة: دعوني آتية، فقالوا: ائته، فلما أشرف على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوها له"، فبعثت له واستقبله الناس يلبون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء ان يصدوا عن البيت، فلما رجع الى أصحابه قال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، فلما أرى ان يصدوا عن البيت، فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص فقال: دعوني آته، فقالوا: ائته فلما أشرف عليهم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "هذا مكرز وهو رجل فاجر"، فجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فبينما هو يكلمه، اذ جاء سهيل بن عمرو.^{٢٠}

الآية في الإعتصام معنويا:

^{٢٠} أسلم بن عيد الهلالي، الإستيعاب في بيان الأسباب، (د.م)، دار ابن الجوزي، (٥١٤٢٥هـ)، ج: ٣، ٣٨٦ - ٣٨٩.

الآية الأولى، قال تعالى: لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ^ط قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ^ج فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ^ظ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ (البقرة/ ٢: ٢٥٦).

قوله تعالى: "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ" اي لا يُكْرَهُ المرء على الدخول في الدين، وإنما يعتنقه بإرادته واختياره. قوله تعالى: "الرُّشْدُ" اي الإيمان. قوله تعالى "الْغَيِّ" اي الكفر. قوله تعالى "الطَّاغُوتِ" اي كل ما صرَفَ عن عبادة الله تعالى من إنسان أو شيطان أو غيرهما. قوله تعالى: "فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ" اي مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَكْفُرُ بِالطَّاغُوتِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ، وفي هذا دليل على تَفَاضُلِ الْأَعْمَالِ؛ لأن الوثقى اسم تفضيل. قوله تعالى: "لَا انفِصَامَ لَهَا" اي لا تَنفَكَ ولا تَنَحَلَّ بحال من الأحوال.^{٢١}

أخرج الواحد عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال: كانت المرأة من الأنصار لا يكاد يعيش لها فتحلف لئن عاش لها ولد لتهودنه، فملا اجليت بنو النضير اذ فيهم ناس من أبناء الأنصار، فقالت الأنصار: يا رسول الله أبنائنا فأنزل الله تعالى: "لا إكراه في الدين" الآية. قال سعيد بن جبير: فمن شاء لحق بهم، ومن شاء دخل في الإسلام. وذكر السدي: انها نزل في ابنين كان نصرانيين وأبوهما يقال له أبو الحصين وكان مسلما من الأنصار فخرج ابناه مع جماعة من الأنصار الى الشام

^{٢١}كاملة بنت محمد بن جاسم بن علي آل جهام الكواري، تفسير غريب القرآن، (د.م، دار بن حزم، ٢٠٠٨م)، ٢٥٦.

انظر أيضا صالح بن عبد الله بن حميد، موسوعة نضرة التعميم، ج: ٢، ٤١٢.

فأخبر أبوهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال اطلبهما فأنزل الله "لا إكراه في الدين"، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبعدهما، الله هما أول من كفر، قال وكان هذا قبل أن يؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتال أهل الكتاب ثم نسخ قوله "لا إكراه في الله" وأمر بقتال أهل الكتاب في سورة براءة. ٢٢

الآية الثانية، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَنَقَبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (لقمان / ٣١ : ٢٢).

قوله تعالى: "يسلم وجهه" اي يخلص عبادته وقصده الى الله. قوله تعالى: "استمسك" اي تعلق واعتصم. قوله تعالى: "بالعروة الوثقى" اي اوثق سبب موصل الى رضوان الله، وبالطرف الأوثق الذي لا يخاف انقطاعه، والعروة ما يُعلّق بها الشئ والوثقى تأنيث الأوثق. قوله تعالى: "عاقبة" اي مآل ومرجع.

ومن يُخلص عبادته لله وقصده الى ربه تعالى، وهو محسن في اقواله متقن لأعماله، فقد اخذ بأوثق سبب موصل الى رضوان الله وجنته. والى الله وحده تصير كل الأمور، فيجازي المحسن على احسانه والمسيئ على اسائه.

ومن يفوض أمره الى الله ويخلص عبادته له وهو محسن في اعماله متقن لها، فقد تعلق بأوثق وأمتن ما يتوثق به من مستمسكات الحبل وعراء اي بالعهد الأوثق الموصل الى رضوان الى الله وحده مصير الأمور لا لأحد سواه.^{٢٣}

الآية الثالثة، قال تعالى: فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

(الزخرف/ ٤٣: ٤٣).

قوله تعالى: "فاستمسك بالذي أوحى إليك إنك على صراط مستقيم" قال قتادة أي بالقرآن، قال على الإسلام.

سواء عجلنا لك الظفر والغلبة او اخرنا الى اليوم الآخر فكن مستمسكا بما اوحينا اليك وبالعمل به فإنه الصراط المستقيم الذي لا يجيد عنه الا ضال شقي، وزد كل يوم صلابة في المحاماة على دين الله، ولا يخرجك الضجر بأمرهم الى شئ من اللين والرخاوة في أمرك، ولكن كما يفعل الثابت الذي لا ينشطه تعجيل ظفر ولا يثبطه تأخيره.^{٢٤}

^{٢٣} شعبان محمد اسماعيل، الكافي في تفسير القرآن الكريم، (د.م، د.ط، د.ت)، ٣٤٦. انظر أيضا محمد بن عبد العزيز الخضيري، السراج في بيان غريب القرآن، ٢١١. انظر أيضا محمد عرفات الحويمي، تهذيب السجستاني في غريب القرآن، (القاهرة، دار الكتاب العربي، ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م)، ١٤٧. انظر أيضا صالح بن عبد الله بن حميد، موسوعة نضرة التعميم، ج: ٢، ٤١٣. انظر أيضا صالح بن عبد العزيز، تفسير الميسر، (مدينة المنورة، مجمع الملك، ١٤٣٠هـ)، ٤١٣. انظر أيضا وهبة الزحيلي، التفسير الوجيز على هامش القرآن العظيم، (بيروت، دار للمستقبل، ١٤١٦هـ)، ٤١٤.

^{٢٤} أبو جعفر النحاس، معاني القرآن، (مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ١٤٠٩هـ)، ٣٦٤. انظر أيضا صالح بن عبد الله بن حميد، موسوعة نضرة التعميم، ج: ٢، ٤١٣. انظر أيضا أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ج: ٥، ٤٤٥ - ٤٤٦.

إِعْتَصَمَ (فعل ماضي مبني للمعلوم بوزن اسْتَفْعَلَ). بمعنى امتنع وأبى، كقوله تعالى: "ولقد رودته عن نفسه فَاسْتَعْصَمَ" الآية (يوسف/ ١٢ : ٣٢) اي العِفَّة. إِعْتَصَمَ (فعل ماضي مبني للمعلوم بوزن اِفْتَعَلَ). بمعنى تَمَسَّك، كقوله تعالى: "الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ" الآية (النساء/ ٤ : ١٣٦) اي احتَمَأ. يَعْصِمُ (فعل مضارع مبني للمعلوم بوزن يَفْتَعِلُ). بمعنى يَتَمَسَّك، كقوله تعالى: "ومن يَعْصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هَدِيَ" الآية (آل عمران/ ٣ : ١٠١) الإِحتِمَاء. يَعْصِمُ (فعل مضارع مبني للمعلوم بوزن يَفْعُلُ). بمعنى يَمْنَع وَيَحْمِي، كقوله تعالى: "واللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ" الآية (المائدة/ ٥ : ٦٧) اي الحِمَايَة. عَاصِمٌ (اسم فاعل بوزن فَاعِلٌ). بمعنى مانع وواق، كقوله تعالى: "مالكم من الله من عَاصِمٍ" الآية (غافر/ ٤٠ : ٣٣) اي الحِمَايَة. عِصَمٍ (اسم ذات/ لفظ جَمْع بوزن فِعْلٌ) وجمع عِصْمَةٌ بمعنى لعقد الزواج، كقوله تعالى: "ولا تَمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفَرِ" الآية (الممتحنة/ ٦٠ : ١٠) اي الزواج.^{٢٥}

والإِعْتِصَامُ عَلَى وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: التَّمْثِيلُ، كقوله تعالى: "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا" الآية (ال عمران/ ٣ : ١٠٣)، وقوله تعالى: "وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ" الآية (الحج/ ٢٢ : ٧٨). والثاني: الإِمْتِنَاعُ، كقوله تعالى: "فَاسْتَعْصِمْ وَلَنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ" الآية (يوسف/ ١٢ : ٣٢).^{٢٦}

والجَمْعُ عِصَمٌ يَعْصِمُ: اِكْتَسَبَ وَمَنَعَ وَوَقَى، وَالْعِصْمُ: الإِمْسَاكُ، وَالإِعْتِصَامُ: الإِسْتِمْسَاكُ، كقوله تعالى: "لَا عَاصِمُ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ" الآية (هود/ ١١ : ٤٣). بمعنى لا شَيْءٌ يَعْصِمُ مِنْهُ. ومن قال

^{٢٥} أحمد مختار عبد الحميد عمر، المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته، ٣١٨.

^{٢٦} سماعيل بن أحمد الضرير الحيريّ النيسابوريّ، وجوه القرآن الكريم، (د.م)، دار السقا، ١٩٩٧م، ٥٥.

معناه: لا معصوم فليس يعني أن العاصم بمعنى المعصوم، وإنما ذلك تنبيه منه على المعنى المقصود بذلك، وذلك أن العاصم والمعصوم يتلازمان، فأيهما حصل معه الآخر، كقوله تعالى: "ما لكم من الله من عاصمٍ" الآية (غافر/ ٤٠: ٣٣). والإعتصام: التمسك بالشيء، كقوله تعالى: "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا" الآية (آل عمران/ ٣: ١٠٣)، وقوله تعالى: "وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ" الآية (آل عمران/ ٣: ١٠١). وَاسْتَعَصِمَ: استمسك، كأنه طلب ما يَعْتَصِمُ به من ركوب الفاحشة، كقوله تعالى: "فَاسْتَعِصِمِ" الآية (يوسف/ ١٢: ٣٢) أي تحرّى ما يَعِصِمُهُ، وقوله تعالى: "ولا تمسكوا بعصم الكوافر" الآية (المتحنة/ ٦٠: ١٠). والعصام: ما يُعَصِّمُ به أي يشدّ أي حبل يشدّ به الدلو والقربة والإداوة، وعصمة الأنبياء: حفظه إياهم أوّلاً بما خصّهم به من صفاء الجوهر، ثمّ بما أولاهم من الفضائل الجسميّة، ثمّ بالنصرة وبتثبيت أقدامهم وبالتوفيق كقوله تعالى: "والله يعصمك من الناس" الآية (المائدة/ ٥: ٦٧). والعصمة: شبه السّوار، والمعصم: موضعها من اليد، وقيل للبياض بالرّسغ: عَصْمَةٌ تشبّيهما بالسّوار، وذلك كتسمية البياض بالرّجل تحجيلاً، وعلى هذا قيل: غراب أعصم. ٢٧

قوله تعالى: "والله يعصمك من الناس" الآية (المائدة/ ٥: ٦٧) أي يمنعك ويحفظك من أذاهم. ولما نزلت أخرج رسول الله صلى الله عليه وسلّم رأسه الكريمه وثوقاً منه بذلك، وقال لحرسيّ كان حوله: "أيها الناس انصرفوا فإنّ الله قد عصني". قوله تعالى: "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ" الآية (آل

^{٢٧} راغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، (دمشق، دار القلام، ٥١٤٣٠ - ٢٠٠٩م)، ٥٦٩ - ٥٧٠. انظر أيضاً راغب الأصفهاني، مفردات في غريب القرآن، (دمشق، دار القلام، ١٤١٢هـ)، ٣٣٦ - ٣٣٧. انظر أيضاً محمّد بن يعقوب الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، (القاهرة، إحياء التراث الإسلامي، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م)، ٧٣.

عمران/ ٣: ١٠٣) اي امتنعوا بالقرآن. والإعتصامُ: الإمتسك بالشيء، والإستِعصامُ: الإستمسك، كقوله تعالى: "واعتصموا بحبل الله" اي الإمتسكوا به. وقوله تعالى: "ومن يعتصم بالله" الآية (آل عمران/ ٣: ١٠١) اي يتمسكُ ويمتنعُ. وقوله تعالى: "واعتصموا بالله" الآية (الحج/ ٢٢: ٧٨) اي امتسكوا وامتنعوا. وقوله تعالى: "لا عاصمُ اليوم من أمر الله إلا من رحم" الآية (هود/ ١١: ٤٣) اي لا مانع من أمره وما أراد من غرق قوم نوح، قيل: عاصمٌ هنا بمعنى معصومٍ كقوله تعالى: "ماءٍ دافقٍ" الآية (الطارق/ ٨٦: ٦) وقوله تعالى: "عيشة راضية" الآية (الحاقة/ ٦٩: ٢١). وكان الذي أحوج إلى هذا استثناء قوله: "إلا من رحم" الآية (هود/ ١١: ٤٣) منه على تقدير الإلتصال وليس ذلك بلازم لما سيأتي. وقال ابن كيسان: لما نُفي العاصمُ صار بمعنى المعصوم، وصار "إلا من رحم" (هود/ ١١: ٤٣) مستثنى من المعصومين الذين دلَّ عليهم الفاعل لأنه جواب من قال: من يعصمني من أمر الله؟ والجواب السديد أن عاصما على معنى ذي عصمةٍ، ففاعلٌ للنسب كلابنٍ ورامحٍ ونابلٍ، وحينئذٍ فالإستثناء متصلٌ واضحٌ.

قوله تعالى: "ولا تُمسكوا بعصم الكوافر" (المتحنة/ ٦٠: ١٠) اي بعقد نكاحهن، وقال ابن عرفة: العِصمة: العقد، والعصمة: المتعة أيضا، ومنه قيل للبدقة العصمة. ومنه قول أبي طالب يمدح النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وأبيض يستسقي الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة الأراامل. وعن عبد الله بن دينارٍ قال: سمعتُ ابنَ عُمَرَ يمثُلُ بشعرِ أبي طالبٍ: وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمَامَ بِوَجْهِهِ ... ثِمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ. وحدثنا حسن بن موسى وعفان قالا: حدثنا حماد بن سلمة عن

على بن زيد عن القاسم بن محمد عن عائشة: أنها تمثلت بهذا البيت وأبو بكر يقضى: وأبيض يستسقي الغمام بوجهه... ربيع اليتامى عصمة للأرامل. وحدثنا أحمد بن الأزهر حدثنا أبو النضر حدثنا أبو عقيل عن عمر بن حمزة حدثنا سالم عن أبيه، قال: ربما ذكرت قول الشاعر وأنا أنظر إلى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر، فما نزل حتى جيش كل ميزاب بالمدينة، فأذكر قول الشاعر: وأبيض يستسقى الغمام بوجهه... ثمال اليتامى عصمة للأرامل، وهو قول أبي طالب^{٢٨}. والعصم: مسكه، كقوله تعالى: "فاستعصم" الآية (يوسف/ ١٢: ٣٢) أي تحرى ما يعصمه ويمنعه من ركوب الفاحشة كأنه طلب ما يعتصم. والعصام: ما يُشد به ويُربط، ومنه: عصام القرية، والجمع عَصْمٌ وأعصمة، ومنه الحديث: جمل مقيد بعصم. والعصمة: ما يبقى من آثار البول على أفخاذ الإبل، وعصام علم منقول منه، وعصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عبارة عن حفظ الله تعالى آياهم من كل كبيرة وصغيرة ورذيلة، وعمّا خصّهم به من صفاء جوهرهم، وبما نقّاهم من درن طبائع البشر. وفي الصحيح ما بيّن ذلك من شق صدره عليه الصلاة والسلام وإخراج ما ذكره عليه الصلاة والسلام منه وغسله بالماء والثلج وحشوه ولئه بالحكم، فكلّ هذا من العناية الربانية بهم، وإلاّ فالبشر من حيث هو بشر يعجز عن اكتساب مثل هذه الأشياء، ولا تجيئ إلاّ بالفيض الإلهي خلافا لمن ضلّ وزعم أنّ التّوبات تكون بالإكتسابات وبما أولاهم من الفضائل الجسمية والنفسية، وبالنصرة

^{٢٨} أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم الألبان، مُختصر صحيح الإمام البخاري، (الرياض، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م)، ج: ١، ٣٠٥. انظر أيضا أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيبان، مسند الإمام أحمد بن حنبل، (القاهرة، دار الحديث، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م)، ج: ١، ١٧٩. انظر أيضا أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، (د.م)، دار الرسالة العالمية، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م)، ج: ٢، ٣٢٣.

وثبتت أقدامهم بما أنزله عليهم من السكينة وربط الجاش، حتى أن موسى عليه السلام يجيء إلى فرعون وهو يدعي الربوبية، وقد ربّاه في حجره والناس كلهم مدعنون لربوبيته مقرّون بالإلهية الآ من عصم الله، ويكذّبه ويوبخه، ما ذاك الآ لقوله تعالى: "إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى" الآية (طه/ ٢٠ : ٣٦). وأعجب من ذلك قصة نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم مع سائر الخلق إنسهم وجنّهم بمفرده ليس له معيّن غير مرسله. وفي الحديث: "إنّ جبريل جاء يوم بدر على فرس أنثى وقد ثنّته العُبار". قال القتيبي: صوابه "عصب" اي يسس. والمعصم: من الكوع إلى المرافق. قال النابغة:

فألقت قناعاً دونه الشمس واتقت * بأحسن موصلين: كف ومعصم

وكأنه أجري مجرى الآلة التي تعصم. والأعصم: الغراب لبعض البياض الذي فيه في نوع منه، وفي الحديث: "لا يدخل من النساء الجنّة الآ مثل الغراب الأعصم"، قال أبو عبيد: هو الأبيض الرجلين، وقال ابن شميل: هو الأبيض الجناحين، وقد حاكاه أبو بكر قال: لأنّ تشبيهه رجله باليدين أولى من تشبيههما بجناحيه، وفي حديث آخر: "غراب أحمر المنقار والرجلين، فقال عليه الصلاة والسلام: لا يدخل الجنّة من النساء الآ قدر هذا الغراب". والعرب تجعل البياض حمرة، ومنه قولهم للبيضاء حمراء، ومنه قوله لعائشة رضي الله عنها: "يا حمراء". والأعصم أيضا: الوعل الذي بذراعه بياض، وجمعه عُصْمٌ. وأنشد: "لو أنّ عُصْمَ عمّا يتين ويدبل". والعصمة: شبه السّوار، والمعصم:

موضعه من اليد. ومن ثم قيل: للبياض بالرُسغ عِصمة تشبيها بالسوار، وكتسمية البياض بالرجل

تحجيلا. ٢٩.

٤. معنى الإعتصام في كتابي الميزان وجامع البيان في تفسير القرآن:

الآية في الإعتصام لفظيا:

الآية الأولى، قال تعالى: يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ
اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَد هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَتَأَيُّهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَأَعْتَصِمُوا
بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۗ وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ
قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا ۗ
كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ (ال عمران/ ٣ : ١٠٠ - ١٠٣).

قوله تعالى: "ياأيها الذين آمنوا" الى قوله "وفيكم رسوله" المراد بالفريق هم اليهود او فريق

منهم، "وانتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله" اي يمكنكم ان تعتصموا بالحق الذي يظهر لكم

بالإنصات الى آيات الله والتدبر فيها ثم الرجوع فيما خفي عليكم منها لقلة التدبر او الرجوع اليه، ثم

٢٩ أحمد بن يوسف بن عبد الدائم، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ معجم لغوي لألفاظ القرآن الكريم، (بيروت،

ابطال شبه القتها اليهود اليكم والتمسك بآيات الله وبرسوله والإعتصام بهما إعتصام بالله، ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم.

فالمراد بالكفر في قوله تعالى: "وكيف تكفرون" اي الكفر بعد الإيمان، "وانتم تتلى عليكم" اي كناية عن إمكان الإعتصام في الإجتنا بآيات الله وبرسوله، "ويعتصم بالله" اي بتمتة الكبرى الكلية لذلك، والمراد بالهداية الى صراط مستقيم الإهتداء الى إيمان ثابت وهو الصراط الذي لا يختلف ولا يختلف أمره، ويجمع سالكيه في مستواه ولا يدعهم يخرجون عن الطريق فيضلوا، وفي تحقيق الماضي في قوله تعالى: "فقد هدي" مع حذف الفاعل دلالة على تحقيق الفعل من غير شعور بفاعله. ويتبين من الآية الماضي ان الكتاب والسنة كافيان في الدلالة على كل حق يمكن أن يضل فيه. الآيات من تتمه ما خاطب به المؤمنين بالتحذير من اهل الكتاب وتفتينهم، وان عندهم ما يمكنهم ان يعتصموا به، فلا يضلوا ولا يسقطوا في حفر المهالك وهي مع ذلك كلام اعتقه كلام، ولا تغير السياق السابق، اعني ان التعرض لحال اهل الكتاب لم يختتم بعد، والدليل على ذلك قوله تعالى بعد هذه الآيات: "لن يضرّوكم الا أذى" الآية.

قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حقّ تقاته" اي قد مرّ فيما مرّ أن التقوى وهو نوع من الإحتراز اذا كان تجنبا وتحززا من عذابه كما قال تعالى: فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا

النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ (البقرة/ ٢: ٢٤). وذلك عن

نواهيته والشكر لنعمه والصبر عند بلائه، ويرجع الأخيران جميعاً إلى الشكر. بمعنى وضع الشيء موضعه وبالجملة تقوى الله سبحانه أن يطاع ولا يعصى ويخضع له فيما أعطى أو منع. لكنّه إذا أخذ التقوى حقّ التقوى الذي لا يشوبه باطل فاسد من سنخه كان محض العبوديّة التي لا تشوبها انية وغفلة وهي الطاعة من غير معصية والشكر من غير كفر والذكر من غير نسيان وهو الإسلام الحقّ أعني الدرّجة العليا من درجاته، وعلى هذا يرجع معنى قوله تعالى: "ولا تموتنّ إلاّ وانتم مسلمون" إلى نحو قولنا: ودوموا على هذه الحال "حقّ التقوى" أي حتّى تموتوا. وهذا المعنى غير ما يستفاد من قوله تعالى:

فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ

نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٦٤﴾ (التغابن/ ٦٤: ١٦)، فإنّ هذه الآية في معنى: ان لا تدرّوا التقوى في شيء ممّا تستطيعونه غير أنّ الإستطاعة تختلف باختلاف قوى الأشخاص وأفهامهم وهمهم، ولا ريب أنّ حقّ التقوى بالمعنى الذي ذكرناه ليس في وسع كثير من الناس، فإنّ في هذا الميسر الباطني موافق ومعاهد ومخاطر لا يعقلها إلاّ العالمون، ودقائق ولطائف لا يتنبه لها إلاّ المخلصون، فرب مرحلة من مراحل التقوى لا يصدق الفهم العامي بكونها ممّا تستطيعه النفس الإنسانيّة فيجزم بكونها غير مستطاعة وان كان أهل التقوى الحقّة خلفوها وراء ظهورهم، وأقبلوا بهمهم على ما هو أشقّ وأصعب. فقوله تعالى: "فاتقوا الله ما استطعتم" الآية كلام يتلقاه الأفهام المختلفة بمعان مختلفة على حسب ما يطبقه كلّ فهم على ما يستطيعه صاحبه، ثمّ يكون ذلك وسيلة ليفهم من هذه الآية

أعني قوله تعالى: "اتقوا الله حقّ تقاته ولا تموتنّ الا وانتم مسلمون" اي انّ المراد ان يقفوا في صراط حقّ التقوى، ويقصدوا نيل هذا المقام والشخص والمثول فيه، وذلك نظير الإهتمام الى الصراط المستقيم الذي يتمكن منه الاّ الأوحديون، ومع ذلك يدعي اليه جميع الناس، فيكون محصل الآيتين: "اتقوا الله حقّ تقاته" و "فاتقوا الله ما استطعتم" ان يندب جميع الناس ويدعوا الى الحقّ التقوى ثمّ يؤمروا بالسير الى هذا المقصد ما قدروا واستطاعوا، وينتج ذلك ان يقع الجميع الجميع في صراط التقوى الاّ أنهم في مراحل مختلفة، وعلى درجات مختلفة على طبق ما عندهم من الأفهام والهمم، وعلى ما يفاض عليهم من توفيق الله وتأيدته وتسديده، فهذا ما يعطيه التدبر في معنى الآيتين. قوله تعالى: "ولا تموتنّ الاّ وانتم مسلمون" اي الموت من الأمور التكوينية التي هي خارجة عن حومة اختيارنا، ولذلك يكون الأمر والنهي المتعلقان به وبأمثاله أمراً ونهياً تكوينيين كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ

إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ

أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾

(البقرة/ ٢: ٢٤٣) وقوله: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٢١٠﴾ (يس/

٣٦: ٨٢) اي الاّ أنه ربّما يجعل الأمر غير الإختياري مضافاً الى أمر اختياره فيتركبان بنحو، وينسب

المركب الى الإختيار فيتأني الأمر والنهي الإعتباره حينئذ كقوله تعالى: أَلْحَقْ مِنْ رَبِّكَ فَلَا

تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٤٧﴾ (البقرة/ ٢ : ١٤٧) وقوله تعالى: وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ

كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ

الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ (هود/ ١١ : ٤٢) وقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ

الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ (التوبة/ ٩ : ١١٩) وغير ذلك، فإن أصل الكون لازم تكويني للإنسان لا أثر

لإختياره فيه لكنه بإرتباطه بأمر اختياري كالأمراء والكفر وإلتزام الصدق، مثلاً يعد أمراً اختياريًا

فيؤمر به وينهى عنه أمراً ونهياً مولويين. وبالجملة النهي عن الموت الآ مع الإسلام إنما هو لمكان عده

اختياريًا ويرجع بالآخرة الى الكناية عن لزوم إلتزام الإسلام في جميع الحالات حتى يقع الموت في

واحدة من هذه الحالات، فيكون الميت مات في حال الإسلام.

قوله تعالى: "واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا" ذكر سبحانه فيما مرّ من قوله: "وكيف

تكفرون وانتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله" الآية اي أن التمسك بآيات الله

ويرسوله (الكتاب والسنة) إعتصام بالله مأمون معه المتمسك المعتصم ومضمون له الهدى والتمسك

بذيل الرسول تمسك بذيل الكتاب فإن الكتاب هو الذي يأمر بذلك في مثل قوله: مَا آفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ

رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ

السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ

عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧٥﴾ (الحشر/ ٥٩ : ٧)، وقد بدل في هذه

الآية الإعتصام المندوب اليه في تلك الآية بالإعتصام بحبل الله فانتج ذلك أن حبل الله هو الكتاب المنزل من عند الله وهو الذي يصل ما بين العبد والرب، ويربط السماء بالأرض، وان شئت قلت: ان حبل الله هو القرآن والتّي صلّى الله عليه وسلّم، فقد عرفت أن مآل الجميع واحد. والقرآن وان لم يدعُ إلا الى حقّ التقوى والإسلام الثابت لكن غرض هذه الآية غير غرض الآية السابقة الآمرة بحقّ التقوى والموت على الإسلام، فإنّ الآية السابقة تتعرّض لحكم الفرد، وهذه الآية تتعرّض لحكم الجماعة المجتمعة والدليل عليه قوله: "جميعا" وقوله: "ولا تتفرّقوا" فالآيات تأمر المجتمع الإسلام بالإعتصام بالكتاب والسنة كما تأمر الفرد بذلك. قوله تعالى: "واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا" جملة "اذ كنتم" اي بيان لما ذكر من النعمة، وعليه يعطف قوله: "وكنتم على حفرة من النار فأنقذكم منها". والأمر بذكر هذه النعمة مبني على دأب ان يضع تعليمه على بيان العلل والأنساب، ويدعو الى الخير والهدى من وجهه من غير ان يأمر بالتقليد العامي المعمي، وحاشا التعليم الإلهي ان يهدي الناس ال السعادة وهي العلم النافع والعمل الصالح ثم يأمر بالوقوع في تيه التقليد وظلمة الجهل. لكن يجب ان لا يشتهبه الأمر ولا يختلط الحال على المتدبّر الباحث، فالله سبحانه يعلم الناس حقيقة سعادتهم، ويعلم الوجه فيها ليتبصّروا بإرتباط

الحقائق بعضها ببعض، وان الجميع فائضة من منبع التوحيد مع وجوب إسلامهم لله لأنه الله رب العالمين واعتصامهم بحبله لأنه حبل الله رب العالمين كما يومئ اليه ما في آخر الآيات من قوله: "تلك آيات الله نتلوها عليك" الآيتان. وبالجملة هو أمرهم ان لا يقبلوا قولاً، ولا يستطيعوا أمراً إلا عن علم بوجهه ثم أمرهم بالتسليم المطلق لنفسه وبين وجهه أنه هو الله الذي يملكهم على الإطلاق فليس لهم إلا ما اراده فيهم وتصرف فيه منهم، وأمرهم بالطاعة المطلقة لما يبلغه رسوله وبين وجهه بأنه رسول لا شأنه له إلا البلاغ ثم يكلمهم بحقائق المعارف، وبيان طرق السعادة، وبين الوجه العام في جميع ذلك ليهتدوا الى روابط المعارف، وطرق السعادة فيتحققوا اصل التوحيد، وليتأدبوا بهذا الأدب الإلهي فيتسلطوا على سبيل التفكير الصحيح، ويعرفوا طريق التكلم الحق فيكونوا احياء بالعلم احرارا من التقليد، ونتيجة ذلك انهم لو عرفوا وجه الأمر في شئ من المعارف الثابتة الدينية او ما يلحق بها اخذوا به، ولو لم يعرفوا وقفوا عن الرد ورجوا نيله بالبحث والتدبر من غير رد او اعتراض بعد ثبوته. وهذا غير ان يقال: ان الدين موضوع على ان لا يقبل شئ حتى من الله ورسوله إلا عن دليل، فإن ذلك من اسفه الرأي و اراد القول، ومرجعه الى ان الله يريد من عباده ان يطالبوا الدليل بعد وجوده، فإن ربوبيته وملكه اصل كل دليل على وجوب التسليم فإن ربوبيته وملكه اصل كل دليل على وجوب التسليم ونفوذ الحكم. ورسالة رسوله هو الدليل على ان ما يؤديه عن الله سبحانه فافهم ذلك او مرجعه الى الغاء ربوبيته فيما يتصرف فيه بربوبيته وليس إلا التناقض، والحاصل ان المسلك الإسلامي والطريق النبوي ليس إلا الدعوة الى العلم دون التقليد على ما يزعمه هؤلاء المقلدة

المتسمون بالناقدين. ولعلّ الوجه في ذكر أنّ هذا المذكور نعمة (نعمة الله عليكم) هو الإشارة الى ما ذكرناه اي ان الدليل على ما ندبناكم اليه من الإتحاد والإجتماع هو ما شاهدتموه من مرارة العدالة وحلاوة المحبة والألفة والأخوة والإشراف على حفرة النار والتخلص منها، وأنما نذكركم بهذا الدليل لا لأنّ علينا ان نؤيد قولنا بما لولاه لم يكن حقاً فإنّما قولنا حقّ سواء دللنا عليه او لا بل لأنّ تعلموا ان ذلك نعمة منا عليكم فتعرفوا ان في هذا الإحتماع كسائر ما ندبكم اليه سعادتكم وراحتكم ومفازتكم. وما ذكره تعالى من الدليلين أحدهما وهو قوله: "اذ كنتم أعداء" مبتن على اصل التجربة، والثاني وهو قوله تعالى: "وكنتم على شفا حفرة" على طريقة البيان العقلي كما هو ظاهر. وفي قوله تعالى: "فأصبحتم بنعمته اخوانا" تكرر للإمتنان الذي يدلّ عليه قوله: "واذكروا نعمة الله عليكم" والمراد بالنعمة هو التأليف، فالمراد بالأخوة التي توجده وتحققه هذه النعمة ايضاً تألف القلوب، فالأخوة ههنا حقيقة ادعائية. ويمكن ان يكون اشارة الى ما يشتمل عليه قوله: **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ**

إِحْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ^ج وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (الحجرات / ٤٩ : ١٠). ومن

تشريع الأخوة بينهم فإنّ بين المؤمنين أخوة مشرعة تتعلق بها حقوق هامة. قوله تعالى: "وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها" شفا الحفرة طرفها الذي يشرف على السقوط فيها من كان به. والمراد من النار ان كان نار الآخرة، فالمراد بكونهم على شفا حفرتها أنّهم كانوا كافرين وليس بينهم وبين الوقوع فيها الا الموت الذي هو أقرب الى الإنسان من سواد العين الى بياضها فأنقذهم الله منها

بالإيمان. وان كان المراد بيان حالهم في مجتمعهم الفاسد الذي كانوا فيه قبل إيمانهم وتألف قلوبهم، وكان المراد بالنار هي الحروب والمنازعات وهو من الإستعمالات الشائعة بطريق الإستعارة، فالمقصود انّ المجتمع الذي بني على تشتت القلوب واختلاف المقاصد والأهواء، ولا محالة لا يسير مثل هذا المجتمع بدليل واحد يهديهم الى غاية واحدة بل بأدلة شتى تختلف باختلاف الميول الشخصية والتحركات الفردية اللاغية التي تهديهم الى أشدّ الخلاف والإختلاف ويشرفهم الى اراد التنازع، ويهددهم دائما ويهددهم دائما بالقتال والتزال، ويعددهم الفناء والزوال وهي النار التي لا تبقي ولا تذر على حفرة الجهالة التي لا منجا ولا مخلص للساقط فيها. فهؤلاء وهم طائفة من المسلمين كانوا قد آمنوا قبل نزول الآية بعد بعد كفرهم، وهم المخاطبون الأقربون بهذه الآيات لم يكونوا يعيشون مدى حياتهم قبل الإسلام الا في حال تهددهم الحروب والمقاتلات آنا بعد آن، فلا أمن ولا راحة ولا فراغ، ولم يكونوا يفقهون ما حقيقة الأمن العام الذي يعم المجتمع بجميع جهاتها من جاه ومال وعرض ونفس وغير ذلك. وثم لما اجتمعوا على الإعتصام بحبل الله، ولاحت لهم آيات السعادت، وذاقوا شيئا من حلاوة النعم وجدوا صدق ما يذكرهم به الله من هنيئ النعمة ولذيد السعادة فكان الخطاب اوقع في نفوس غيرهم. ولذلك بني الكلام ووضع الدعوة على اساس المشاهدة والوجدان دون مجرد التقدير والفرض فليس العيان كالبيان، ولا التجارب كالفرض والتقدير، ولذلك بعينه اشار في التحذير الآتي في قوله: **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ**

وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ (آل عمران / ٣: ١٠٥) الى حال من قبلهم فإنّ مآل حالهم

بمراى ومسمع من المؤمنين فعليهم ان يعتبروا بهم وبما آل اليه أمرهم فلا يجروا مجراهم ولا يسلكوا مسلكهم. ثم نبههم الله على خصوصية هذا البيان، فقال: "كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تفتدون".^{٣٠}

قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردّوكم بعد إيمانكم كافرين" ثاني مفعولي يرد فائه بمعنى التصيير، نزلت الى قوله "لعلكم تفتدون" اي في الأوس والخزرج حين ذكرهم اليهود الحروب وعداوات الجاهلية ليفتنوا ويعودوا لمثل ما فيهم من الجاهلية.

قوله تعالى: "وكيف تكفرون وانتم تُتلى عليكم آيات الله" اي القرآن وغيره، "وفيكم رسوله" اي الزاهر الباهر السراج الظاهر عليه الصلاة والسلام، "ومن يعتصم بالله" اي يلتجئ اليه ويتمسك بدينه ويؤمن به، "فقد هدي الى صراط مستقيم" اي طريق واضح لا اعوجاج له.

قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حقّ تقاته" اصله وقاة فقبلت الواو تاء كتودة وتخممة وهو ان يُطاع ولا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى، وكثير من السلف قالوا: هذه الآية نسوخة بقوله تعالى: "فاتقوا الله ما استطعتم" الآية (التغابن/ ٦٤ : ١٦)، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنّها لم تنسخ لكن حقّ تقاته ان يجاهد في سبيله حق جهاده، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا بالقسط ولو على انفسهم وآبائهم وابنائهم، "ولا تموتنّ الا وانتم مسلمون" اي لا تكونن على حال سوى الإسلام اذا أدرككم الموت فهو في الحقيقة أمر بدوام الإسلام.

^{٣٠} السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج: ٣، ٤١٩ - ٤٢٦.

قال تعال: "واعتصموا" اي واستمسكوا، "بجبل الله جميعا" اي بدين الله او بالجماعة او بعهد الله او بالقرآن، "ولا تفرّقوا" اي امرهم ان يكونوا على الحق مجتمعين ثم نهاهم عن التفرقة كما افترق اهل الكتاب، "واذكروا نعمة الله عليكم" التي من جملتها الإسلام والتأليف، "فألف بين قلوبكم" بالإسلام، "فأصبحتم بنعمته اخوانا" متحابين، "وكنتم" في الجاهلية، "على شفا حفرة من النار" اي مشفين على الوقوع في جهنم لكفركم وشفا بمعنى الطرف، "فأنقذكم" اي انجأكم، "منها" بالإسلام، والضمير للشفا او للحفرة او للنار، "كذلك" مثل ذلك التبيين، "بيّن الله لكم آياته لعلكم تهتدون" إرادة ثباتكم على الهدى. ٣١

الآية الثانية، قوله تعالى: **إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۗ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾** (النساء/ ٤: ١٤٥ - ١٤٦).

والدرك بفتحتين وقد يسكن الراء، قال الراغب: الدرك كالدراج لكن الدرج يقال اعتبارا بالصعود والدرك اعتبارا بالخذور، ولهذا قيل: درجات الجنة ودركات النار ولتصور الحدود في النار سميت هاوية. والآية كما ترى تنهى المؤمنين عن الإتصال بولاية الكفار وترك ولاية المؤمنين ثم الآية الثانية تعلق ذلك بالوعيد الشديد المتوجه الى المنافقين، وليس إلا ان الله سبحانه يعد هذا الصنيع نفاقا يجر المؤمنين من الوقوع فيه. والسياق يدل على ان قوله "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا" كالنتيجة

٣١ البيهقي الشيرازي الشافعي، جامع البيان في تفسير القرآن، ج: ١، ٢٧٦ - ٢٧٨.

المستنتجة مما تقدم او الفرع المتفرع عليه، وهذا كالصريح في ان الآيات السابقة انما تتعرض لحال مرضى القلوب وضعفاء الإيمان من المؤمنين ويسميهم المنافقين، ولا اقل من شمولها لهم ثم يعظ المؤمنين ان لا يقربوا هذا الحمى ولا يتعرضوا لسخط الله، ولا يجعلوا لله تعالى على انفسهم حجة واضحة فيضلهم ويخدعهم ويدبذهم في الحياة الدنيا ثم يجمع بينهم وبين الكافرين في جهنم جميعا ثم يسكنهم في اسفل درك من النار، ويقطع بينهم وبين كل نصير ينصرهم وشفيع لهم. ويظهر من الآيتين، اولا: ان الإضلال والخدعة وكل سخط الهي من هذا القبيل انما عن حجة واضحة تعطىها اعمال العباد فهي اخزاء على طريق المقابلة والمجازاة، وحاشا الجناب الإلهي ان يبدأهم بالشر والشقوة من غير تقدم ما يوجب ذلك من قبلهم، فقول تعالى: "اريدون ان تجعلوا الله عليكم سلطانا مبينا"؟ يجري مجرى قوله "وما يضلّ به الاّ الفاسقين" الآية (البقرة/ ٢: ٢٦)، والثاني: ان في النار لأهلها مراتب تختلف في السفالة، ولا محالة يشتد بحسبها عذابهم يسميهم يسميها الله تعالى بالدركات.

قال تعالى: "الاّ الذين تابوا واصلحوا واعتصموا بالله واخلصوا دينهم لله" استثناء من الوعيد الذي ذكر في المنافقين بقوله: "انّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار" ولازم ذلك خروجهم من جماعة المنافقين، ولحوقهم بصف المؤمنين، ولذلك ذيل الإستثناء بذكر كونهم مع المؤمنين، وذكر ثواب المؤمنين جميعا فقال تعالى: "فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتي الله المؤمنين أجرا عظيما" وقد وصف الله هؤلاء الذين استثناهم من المنافقين بأوصاف عديدة ثقيلة، وليست تنبت اصول النفاق واعراقه الا بها، فذكر التوبة وهي الرجوع الى الله تعالى، ولا ينفع الرجوع والتوبة وحده حتى

يصلحوا كل ما فسد منهم من نفس وعمل، ولا ينفع الإصلاح إلا ان يعتصموا بالله اي يتبعوا كتابه
وستته نبيه صلى الله عليه وسلم اذ لا سبيل الى الله الا ما عينه وما سوى ذلك فهو سبيل الشيطان.
ولا ينفع الإعتصام المذكور الا اذا أخلصوا دينهم وهو الذي فيه الإعتصام لله، فإن الشرك ظلم لا
يعفى عنه ولا يغفر، فإذا تابوا الى الله واصلحوا كل فاسد منهم واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله
كانوا عند ذلك مؤمنين لا يشوب إيمانهم شرك، فأمنوا النفاق واهتدوا قال تعالى: "الذين آمنوا ولم
يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون" (الأنعام/ ٦: ٨٢). ويظهر من سياق الآية أن
المراد بالمؤمنين وهم المؤمنون محضا المخلصون للإيمان، وقد عرفهم الله تعالى بأنهم الذين تابوا
وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله، وهذه الصفات تتضمن تفاصيل جميع ما عده الله تعالى
في كتابه من صفاتهم ونعوتهم كقوله تعالى: "قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون، والذين
هم عن اللغو معرضون" الآية (المؤمنون/ ٢٣: ١ - ٣)، وقوله تعالى: "وعباد الرحمن الذين يمشون
على الأرض هونا واذ خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما، والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما" (الفرقان/
٤٠: ٦٣ - ٦٤)، وقوله تعالى: "فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا
في انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما" (النساء/ ٤: ٦٥). فهذا مراد القرآن بالمؤمنين اذا
اطلق اللفظ اطلاقا من ير قرينة تدل على خلافه. وقد قال تعالى: "وأولئك مع المؤمنين" ولم يقل:
"وأولئك من المؤمنين" لأنهم بتحقيق هذه الأوصاف فيهم أول تحققها يلحقون بهم ولن يكونوا منهم
حتى تستمر فيهم الأوصاف على استقرارها، فافهم ذلك.^{٣٢}

^{٣٢} السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج: ٥، ١٢٠ - ١٢٢.

قال تعالى: "انّ المنافقين في الدّرك الأسفل من النّار" اي الطبقة الّتي في قعر جهنّم او توابيت من حديد مقفلة في النّار او بيوت مقفلة عليهم توقد من تحتهم وفوقهم، "ولن تجد لهم نصيرا" يخرجهم منها. "الاّ الذين تابوا" عن التّفاق "واصلحوا" العمل "واعتصموا بالله" وثقوا به والتجأوا اليه "واخلصوا دينهم لله" من شوائب الرياء فلا يعملون الاّ الله "فأولئك مع المؤمنين" في زمرة يوم القيامة "وسوف يؤت الله المؤمنين اجرا عظيما" فيشاركونهم فيه.^{٣٣}

الآية الثالثة، قال تعالى: يَتَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ (النساء/ ٥: ١٧٤ - ١٧٥).

قوله تعالى: "ياايها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وانزلنا اليكم نورا مبينا" قال الراغب: البرهان بيان للحجة وهو فعلان مثل الرجحان والثنيان، وقال بعضهم: برهان مصدر من بره يبره برهان اذا ابيض فهو على اي حال مصدر، وربما استعمل بمعنى الفاعل كما اذا اطلق على نفس الدليل والحجة. والمراد بالنور هو القرآن لا محالة بقريئة قوله "وانزلنا اليكم" ويمكن ان يراد بالبرهان ايضا ذلك، والجملتان اذا تؤكد احدهما الأخرى، ويمكن ان يراد به النبي صلى الله عليه وسلم ويؤيده في ذيل الآيات المبينة لصدق النبي في رسالته، ونزول القرآن من عند الله تعالى وكون الآية تفريعا لذلك ويؤيده ايضا قوله تعالى في الآية التالية: "واعتصموا" لما تقدم في الكلام على قوله "ومن يعتصم

^{٣٣} البيهقي الشيرازي الشافعي، جامع البيان في تفسير القرآن، ج: ١، ٤٢٣.

بالله فقد هدي الى صراط مستقيم" (آل عمران/ ٣: ١٠١) أن المراد بالإعتصام الأخذ بكتاب الله والإتباع لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله تعالى: "فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ" بيان لثواب من أتبع برهان ربه والنور النازل من عنده. والآية كأنها منتزعة من الآية السابقة المبينة لثواب الذين آمنوا وعملوا الصالحات اعني قوله تعالى: "فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ" ولعله لذلك لم يذكر ههنا جزاء المتخلف من تبيعة البرهان والتور لأنه بعينه ما ذكر في الآية السابقة فلا حاجة الى تكراره ثانيا بعد الإشعار بأن جزاء المتبعين ههنا جزاء المتبعين هنالك وليس هناك إلا فريقان: المتبعون والمتخلفون. وعلى هذا فقوله في هذه الآية: "فسيدخلهم في رحمة منه" يحاذي قوله في تلك الآية "فيوفيهم اجورهم" وهو الجنة، وايضا قوله في هذه الآية "وفضل" يحاذي قوله في تلك الآية "ويزيدهم من فضله" وأما قوله "ويهديهم اليه صراطا مستقيما" فهو من آثار ما ذكر قبيها من الإعتصام بالله كما في قوله: "ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم" (آل عمران/ ٣: ١٠١).^{٣٤}

قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ" يعني: محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَالسَّلَامُ أَوْ الْقُرْآنُ، وَقِيلَ: الْمَعْجَزَاتُ "وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا" اي القرآن "فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ" جمع بين مقامي العبادة والتوكل على الله أو إعتصموا بالقرآن "فسيدخلهم في رحمة منه وفضل" زائد على قدر أعمالهم "ويهديهم اليه" الى الله "صراط مستقيما" في العلم والعمل فهم في الدنيا على منهاج

^{٣٤} السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج: ٥، ١٥٥ - ١٥٠

الإستقامة، وفي الآخرة على صراط مستقيم يفضى الى روضات الجنات، وصراطا: اما بدل من اليه او مفعول يهديهم واليه حال مقدم. ٣٥

الآية الرابعة، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ^ج وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ^ط إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ^{٧٧}﴾ (المائدة/ ٥ : ٦٧).

معنى الآية في نفسها ظاهر فإنها تتضمن أمر الرسول الله صلى الله عليه وسلم بالتبليغ في صورة التهديد، ووعدده صلى الله عليه وسلم بالعصمة من الناس غير أن التدبر في الآية من حيث وقوعها موقعها الذي وقعت فيه، وقد حففتها الآيات المتعرضة الحال الكتاب وذمهم وتوبيخهم بما كانوا يتعاورونه من أقسام التعدي الى محارم الله والكفر بآياته.

وقد اتصل بها من جانبيها الآيتان كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا

أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ^ج مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ^ط

وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ^{٧٦}﴾ (المائدة/ ٥ : ٦٦).

^{٣٥} البيهقي الشيرازي الشافعي، جامع البيان في تفسير القرآن، ج: ١، ٤٣٥.

وقال تعالى: قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا

أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۗ

فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ (المائدة/ ٥ : ٦٨).

ثم الإمعان في التدبر في نفس الآية وارتباط الجمل المنضودة فيها يزيد الإنسان عجباً على عجب، فلو كانت متصلة بما قبلها وما بعدها في سياق واحد في أمر أهل الكتاب لكان محصلها أمر النبي صلى الله عليه وسلم أشد الأمر بتبليغ ما أنزله الله سبحانه في أمر أهل الكتاب، وتعين بحسب السياق أن المراد بما أنزل اليه من ربه هو ما يأمره بتبليغه في قوله: قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ

حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا

أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۗ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ (المائدة/ ٥ :

٦٨).

وسياق الآية ياباه كما قال تعالى: "والله يعصمك من الناس" أي يدل على أن هذا الحكم المترل

المأمور بتبليغه أمر مهم في مخافة الخطر على نفس النبي صلى الله عليه وسلم أو على دين الله تعالى من

حيث نجح تبليغه، ولم يكن من شأن اليهود ولا النصارى في عهد النبي صلى الله عليه وسلم أن

يتوجه اليه من ناحيتهم خطر يسوغ له صلى الله عليه وسلم ان يمسك عن التبليغ او يؤخره الى حين فيبلغ الأمر الى حيث يحتاج الى ان يعده الله بالعصمة منهم ان بلغ ما أمر به فيهم حتى في أوائل هجرته صلى الله عليه وسلم الى المدينة وعنده حدة اليهود وشدتهم حتى انتهى الى وقائع خبير وغيرها.

وعلى أن الآية لا تتضمن أمرا شديدا ولا قولاً حاداً، وقد تقدم عليه تبليغ ما هو أشدّ وأحدّ وأمرّ من ذلك على اليهود، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتبليغ ما هو أشد من ذلك كتبليغ التوحيد ونفي الوثنية الى كفار قريش ومشركي العرب وهم أغلظ جانباً وأشد بطشاً وأسفك للدماء، وأفتك من اليهود وسائر أهل الكتاب، ولم يهدده الله في أمر تبليغهم ولا آمنه بالعصمة منهم.

وعلى أن الآيات المتعرضة لحال أهل الكتاب معظم أجزاء سورة المائدة فهي نازلة فيها قطعاً، واليهود كانت عند نزول هذه السورة قد كسرت سورتهم، وحمدت نيرانهم وشملتهم السخطة واللعنة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله فلا معنى لخوف رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم في دين الله، وقد دخلوا يومئذ في السلم في حظيرة الإسلام وقبلوا هم والنصارى الجزية، ولا معنى لتقريره تعالى له خوفه واضطرابه في تبليغ أمر الله اليهم وهو أمر قد بلغ اليهم ما هو أعظم منه، وقد وقف قبل هذا الموقف فيما هو أهول منه وأوحش. فلا ينبغي الإرتياب في أن الآية لا تشارك الآيات السابقة عليها واللاحقة لها في سياقها، ولا تتصل بها في سردها، وإنما هي آية مفردة نزلت وحدها.

والآية تكشف عن أمر قد أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم (اما مجموع الدين او بعض اجزائه) وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخاف الناس من تبليغه ويؤخره الى حين يناسبه، ولولا مخافته وامساكه لم يحتج الى تهديده بقوله تعالى: "وان لم تفعل فما بلغت رسالته" الآية (المائدة/ ٥ : ٦٧)

كما وقع في آيات اول البعثة الخالية عن التهديد كما قال تعالى: **أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** ﴿١﴾

(العلق/ ٩٦ : ١) الى آخر سورة العلق، وقال تعالى: **يَتَأْتِيَا الْمَدْيَنَ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾** (المدثر/

٧٤ : ١ - ٢)، وقال تعالى: **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُهُ وَاحِدٌ**

فَأَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ (فصلت او حم السجدة/ ٤١ : ٦).

فهو صلى الله عليه وسلم كان يخافهم ولم يكن مخافته من نفسه في جنب الله سبحانه فهو أجل من ان يستنكف عن تفدية نفسه او ييخل في شئ من أمر الله بمهجته فهذا شئ تكذبه سيرته الشريفة ومظاهر حياته، وعلى أن الله شهد في رسله على خلاف ذلك كما قال تعالى: **مَا كَانَ عَلَى**

النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ۖ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ۗ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ

قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ

وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ (الأحزاب/ ٣٣ : ٣٨ - ٣٩)، وقد قال تعالى في أمثال هذه الفروض:

إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ تَحْوِفُ أَوْلِيَآءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ (آل

عمران/ ٣: ١٧٥)، وقد مدح الله سبحانه طائفة من عباده بأنهم لم يخشوا الناس في عين ان الناس

خوفوهم فقال تعالى: الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ

فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ (آل عمران/ ٣: ١٧٣).

وليس من الجائز ان يقال: انه صلى الله عليه وسلم كان يخاف على نفسه ان يقتلوه فيبطل بذلك

اثر الدعوة وينقطع دابرها فكان يعوقه الى حين ليس فيه هذه المفسدة فان الله سبحانه يقول له صلى

الله عليه وسلم: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ

﴿١٢٨﴾ (آل عمران/ ٣: ١٢٨)، لم يكن الله سبحانه يعجزه لو قتلوا النبي صلى الله عليه وسلم ان يجبي

دعوته بأي وسيلة من الوسائل شاء وبأي اراد.

نعم من الممكن ان يقدر لمعنى قوله تعالى: "والله يعصمك من الناس" ان يكون النبي صلى الله عليه

وسلم يخاف الناس في أمر تبليغه ان يتهموه بما يفسد به الدعوة فسادا لا تنجح معه ابدأ فقد كان

أمثال هذا الرأي والإجتهد جائزا له مآذونا فيه من دون ان يرجع معنى الخوف الى نفسه بشيء.

ومن هنا يظهر أن الآية لم تنزل في بدء البعثة كما يرا اذ لا معنى حينئذ لقوله تعالى: "والله يعصمك من الناس" الا أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم يماطل في انجاز التبليغ خوفا من الناس ان يقتلوه فيحرم الحياة او ان يقتلوه ويذهب التبليغ باطلا لا أثر له فان ذلك كله لا سبيل الى احتمالاه.

وعلى أن المراد بما أنزل اليه من ربه لو كان اصل الدين او مجموعه في الآية عاد معنى في قوله تعالى: "وان لم تفعل فما بلغت رسالته" الى نحو قولنا: يا أيها الرسول بلغ الدين وان لم تبلغ الدين فما بلغت الدين.

واما جعله من قبيل قول أبي النجم: انا أبو النجم وشعري شعري، كما ذكره بعضهم ان معنى الآية: وان لم تبلغ الرسالة فقد لزمك شناعة القصور في التبليغ والإهمال في المسارعة الى ائتمار ما امرك به الله سبحانه، وأكدته عليك كما أن معنى قول أبي النجم: انا أبو النجم وشعري شعري المعروف بالبلاغة المشهور بالبراعة، فان ذلك فاسد لأن هذه الصنعة الكلامية انما تصح في موارد العام والخاص والمطلق والمقيد ونظائر ذلك فيفاد بهذا السياق اتحادهما كقول أبي النجم: شعري شعري اي لا ينبغي ان يتوهم علي متوهم ان قريحتي كلت او ان الحوادث اعيتني ان اقول من الشعري ما كنت اقله بالأمس.

واما قوله تعالى: "وان لم تفعل فما بلغت رسالته" فليس يجري فيه مثل هذه العناية فإن الرسالة التي هي مجموع الدين او اصله على تقدير نزول الآية في اول البعثة أمر واحد غير مختلف و لا متغير

حتى يصح ان يقال: إن لم تبلغ هذه الرسالة فما بلغت تلك الرسالة او لم تبلغ أصل الرسالة فإن المفروض انه اصل الرسالة التي هي مجموع المعارف الدينية.

فقد تبين أن الآية بسياقها لا تصلح أن تكون نازلة في بدء البعثة و يكون المراد فيها بما أنزل إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مجموع الدين او أصله، ويتبين بذلك أنها لا تصلح ان تكون نازلة في خصوص تبليغ مجموع الدين او أصله في أي وقت آخر غير بدء البعثة فإن الإشكال انما ينشأ من جهة لزوم اللغو في قوله تعالى: "وان لم تفعل فما بلغت رسالته" كما مر.

وعلى أن قوله تعالى: "يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك" لا يلائم النزول في اي وقت آخر غير بدء البعثة على تقدير ارادة الرسالة بمجموع الدين او أصله، وهو ظاهر. وعلى أن محذور دلالة قوله تعالى: "والله يعصمك من الناس" على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يخاف الناس في تبليغه على حاله.

فظهر أن ليس هذا الأمر الذي أنزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأكدت الآية تبليغه هو مجموع الدين أو أصله على جميع تقاديره المفروضة فلنضع أنه بعض الدين، والمعنى: "بلغ الحكم الذي أنزل إليك من ربك و إن لم تفعل فما بلغت رسالته" الخ، ولازم هذا التقدير أن يكون المراد بالرسالة مجموع ما حملة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الدين ورسالته، والا فالمحذور السابق وهو

لزوم اللغو في الكلام على حاله إذ لو كان المراد بقوله: "رسالته" الرسالة الخاصة بهذا الحكم كان المعنى: بلغ هذا الحكم وان لم تبلغه فما بلغته، وهو لغو ظاهر.

فالمراد أن بلغ هذا الحكم وان لم تبلغه فما بلغت أصل رسالته أو مجموعها، وهو معنى صحيح معقول، وحينئذ يرد الكلام نظير المورد الذي وردة قول أبي النجم: انا أبو النجم و شعري شعري.

واما كون هذا الحكم بحيث لو لم يبلغ فكأنما لم تبلغ الرسالة فإنما ذلك لكون المعارف والأحكام الدينية مرتبطة بعضها ببعض بحيث لو أحل بأمر واحد منها أحل بجميعها وخاصة في التبليغ لكمال الارتباط، وهذا التقدير وان كان في نفسه مما لا بأس به لكن ذيل الآية و هو قوله تعالى: "والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين" لا يلائمه فإن هذا الذيل يكشف عن أن قوما كافرين من الناس هموا بمخالفة هذا الحكم النازل او كان المترقب من حالهم أنهم سيخالفونه مخالفة شديدة، ويتخذون أي تدبير يستطيعونه لإبطال هذه الدعوة وتركه سدى لا يؤثر أثرا ولا ينفع شيئا وقد وعد الله رسوله أن يعصمه منهم، ويبطل مكرهم ولا يهديهم في كيدهم.

ولا يستقيم هذا المعنى مع اي حكم نازل فرض فإن المعارف والأحكام الدينية في الإسلام ليست جميعا في درجة واحدة ففيها التي هي عمود الدين، وفيها الدعاء عند رؤية الهلال، وفيها زنى المحصن و فيها النظر إلى الأجنبية، ولا يصح فرض هذه المخافة من النبي صلى الله عليه وآله وسلم والوعد بالعصمة من الله مع كل حكم حكم منها كيفما كان بل في بعض الأحكام.

فليس استلزام عدم تبليغ هذا الحكم لعدم تبليغ غيره من الأحكام إلا لمكان أهميته ووقوعه من الأحكام في موقع لو أهمل أمره كان ذلك في الحقيقة اهمالا لأمر سائر الأحكام، وصيرورتها كالجسد العادم للروح التي بها الحياة الباقية والحس والحركة، وتكون الآية حينئذ كاشفة عن أن الله سبحانه كان قد أمر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بحكم يتم به أمر الدين ويستوي به على عريشة القرار، وكان من المترقب أن يخالفه الناس ويقلبوا الأمر على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بحيث تنهدم اركان ما بناه من بنيان الدين وتتلاشى أجزاءه، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتفرض ذلك ويخافهم على دعوته فيؤخر تبليغه إلى حين بعد حين ليجد له طرفا صالحا وجوا آمنا عسى أن تنجح فيه دعوته، ولا يخيب مسعاه فأمره الله تعالى بتبليغ عاجل، وبين له أهمية الحكم، ووعدته أن يعصمه من الناس، ولا يهديهم في كيدهم، ولا يدعهم يقلبوا له أمر الدعوة.

وانما يتصور تقلب أمر الدعوة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وابطال عمله بعد انتشار الدعوة الإسلامية لا من جانب المشركين ووثنية العرب او غيرهم كأن تكون الآية نازلة في مكة قبل الهجرة، وتكون مخافة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الناس من جهة افتراءهم عليه واتهامهم إياه في أمره كما حكاها الله سبحانه من قولهم: **ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مَّجْنُونٌ** ﴿١٤﴾ (الدخان/

٤٤ : ١٤). وقوله تعالى: **أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ** ﴿٣٠﴾ (الطور/ ٥٢):

٣٠). وقوله تعالى: **كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ**

﴿٥٢﴾ (الذاريات / ٥١ : ٥٢). وقوله تعالى: نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ

وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ (الإسراء / ١٧:

٤٧). وقوله تعالى: فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿٢٤﴾ (المدثر / ٧٤ : ٢٤). وقوله تعالى: وَقَالُوا

أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ (الفرقان / ٢٥ : ٥).

وقوله تعالى: وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ

إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ (النحل / ١٦ : ١٠٣). وقوله تعالى:

وَأَنْطَلِقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَأَصْبَرُوا عَلَىٰ ءَالِهِتُمْ إِن هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ (ص /

٣٨ : ٦). والى غير ذلك من أقاويلهم فيه صلى الله عليه وآله وسلم.

فهذه كلها ليست مما يوجب وهن قاعدة الدين، وإنما تدل إذا دلت على اضطراب القوم في

أمرهم، وعدم استقامتهم فيه على أن هذه الافتراءات و المرامي لا تختص بالنبي صلى الله عليه وآله

وسلم حتى يضطرب عند تفرسها ويخاف وقوعها فسائر الأنبياء والرسل يشاركونه في الابتلاء بهذه

البلايا والحن، ومواجهة هذه المكاره من جملة أمهم كما حكاه الله تعالى عن نوح ومن بعده من

الأنبياء المذكورين في القرآن.

بل إن كان شيء ولا بد فإنما يتصور بعد الهجرة واستقرار أمر الدين في المجتمع الإسلامي والمسلمون كالمعجون الخليط من صلحاء مؤمنين وقوم منافقين أولي قوة لا يستهان بأمرهم، وآخرين في قلوبهم مرض وهم سماعون كما نص عليه الكتاب العزيز وهؤلاء كانوا يعاملون مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في عين أنهم آمنوا به واقعا أو ظاهرا معاملة الملوك، ومع دين الله معاملة القوانين الوضعية القومية كما يشعر بذلك طوائف من آيات الكتاب قد تقدم تفسير بعضها في الأجزاء السابقة من هذا الكتاب.

فكان من الممكن أن يكون تبليغ بعض الأحكام مما يوقع في الوهم انتفاع النبي صلى الله عليه وآله وسلم بتشريعه وإجرائه يستوجب أن يقع في قلوبهم أنه ملك في صورة النبوة وقانون ملكي في هيئة الدين كما ربما وجد بعض شواهد ذلك في مطاوي كلمات بعضهم.

وهذه شبهة لو كانت وقعت هي أو ما يماثلها في قلوبهم ألفت إلى الدين من الفساد والضيعة ما لا يدفعه أي قوة دافعة، ولا يصلحه أي تدبير مصلح فليس هذا الحكم النازل المأمور بتبليغه إلا حكما فيه توهم انتفاع للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، واختصاص له بمزية من المزايا الحيوية لا يشاركه فيها غيره من سائر المسلمين، نظير ما في قصة زيد و تعدد الأزواج والاختصاص بخمس الغنائم و نظائر ذلك.

غير أن الخصائص إذا كانت مما لا تمس فيه عامة المسلمين لم يكن من طبعها إثارة الشبهة في القلوب فإن الإزدواج بزوجة المدعو ابنا مثلا لم يكن يختص به والإزدواج بأكثر من أربع نسوة لو كان تجويزه لنفسه عن هوى بغير إذن الله سبحانه لم يكن يمنعه أن يجوز مثل ذلك لسائر المسلمين، وسيرته في إيثار المسلمين على نفسه في ما كان يأخذه الله و لنفسه من الأموال و نظائر هذه الأمور لاتدع ريبا لمرتاب و لا يشتبه أمرها لمشتبه دون أن تزول الشبهة.

فقد ظهر من جميع ما تقدم أن الآية تكشف عن حكم نازل فيه شوب انتفاع للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، واختصاصه بمزية حيوية مطلوبة لغيره أيضا يوجب تبليغه والعمل به حرمان الناس عنه فكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يخاف إظهاره فأمره الله بتبليغه وشدد فيه، ووعده العصمة من الناس وعدم هدايتهم في كيدهم إن كادوا فيه.

وهذا يؤيد ما وردت به النصوص من طرق الفريقين أن الآية نزلت في أمر ولاية علي عليه السلام، وأن الله أمر بتبليغها و كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يخاف أن يتهموه في ابن عمه، ويؤخر تبليغها وقتا إلى وقت حتى نزلت الآية فبلغها بغدير خم، وقال فيه: من كنت مولاه فهذا علي مولاه.

وكون ولاية أمر الأمة مما لا غنى للدين عنه ظاهر لا ستر عليه، وكيف يسوغ لمتوهم أن يتوهم أن الدين الذي يقرر بسعته لعامة البشر في عامة الأعصار والأقطار جميع ما يتعلق بالمعارف الأصلية،

والأصول الخلقية، والأحكام الفرعية العامة لجميع حركات الإنسان وسكناته فرادى ومجتمعين على خلاف جميع القوانين العامة لا يحتاج إلى حافظ يحفظه حق الحفظ؟ أو أن الأمة الإسلامية والمجتمع الديني مستثنى من بين جميع المجتمعات الإنسانية مستغنية عن وال يتولى أمرها ومدبر يديرها ومجر يجريها؟ وبأي عذر يمكن أن يعتذر إلى الباحث عن سيرة النبي الاجتماعية؟ حيث يرى أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا خرج إلى غزوة خلف مكانه رجلا يدير رحى المجتمع، وقد خلف عليا مكانه على المدينة عند مسيره إلى تبوك فقال: يا رسول الله أتخلفني على النساء والصبيان؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي؟ وكان صلى الله عليه وآله وسلم ينصب الولاية للحكام في ما بيد المسلمين من البلاد كمكة والطائف واليمن وغيرها، ويؤمر رجلا على السرايا والجيوش التي يبعثها إلى الأطراف، وأي فرق بين زمان حياته وما بعد مماته دون أن الحاجة إلى ذلك بعد غيبته بالموت أشد، والضرورة إليه أمس ثم أمس.

وقوله تعالى: "يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك" مخاطبه صلى الله عليه وآله وسلم بالرسالة لكونها أنسب الصفات إلى ما تتضمنه الآية من الأمر بالتبليغ لحكم الله النازل فهو كالبرهان على وجوب التبليغ الذي تظهره الآية وقرعه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإن الرسول لا شأن له إلا تبليغ ما حمل من الرسالة فتحمل الرسالة يفرض عليه القيام بالتبليغ.

ولم يصرح باسم هذا الذي أنزل إليه من ربه بل عبر عنه بالنعته وأنه شيء أنزل إليه، إشعاراً بتعظيمه و دلالة على أنه أمر ليس فيه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صنع، ولا له من أمره

شيء ليكون كبرهان آخر على عدم خيرة منه صلى الله عليه وآله وسلم في كتمانته وتأخير تبليغه، ويكون له عذرا في إظهاره على الناس، وتلويحا إلى أنه صلى الله عليه وآله وسلم مصيب في ما تفرسه منهم وتخوف عليه، وإيماء إلى أنه مما يجب أن يظهر من ناحيته صلى الله عليه وآله وسلم وبلسانه وبيانه.

قوله تعالى: "وإن لم تفعل فما بلغت رسالته" المراد بقوله: "رسالته" وقرئ رسالاته، كما تقدم مجموع رسالات الله سبحانه التي حملها رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد تقدم أن الكلام يفيد أهمية هذا الحكم المرموز إليه، وأن له من المكانة ما لو لم يبلغه كأن لم يبلغ شيئا من الرسالات التي حملها.

فالكلام موضوع في صورة التهديد، وحقيقته بيان أهمية الحكم، وأنه بحيث لو لم يصل إلى الناس، ولم يراع حقه كان كأن لم يراع حق شيء من أجزاء الدين فقوله: "وإن لم تفعل فما بلغت" جملة شرطية سيقف لبيان أهمية الشرط وجودا وعدما لترتب الجزاء الأهم عليه وجودا وعدما.

وليست شرطية مسوقة على طبع الشرطيات الدائرة عندنا فإننا نستعمل "إن" الشرطية طبعا فيما نجهد تحقق الجزاء للجهل بتحقق الشرط، وحاشا ساحة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أن يقدر القرآن في حقه احتمال أن يبلغ الحكم النازل عليه من ربه وأن لا يبلغ، وقد قال تعالى: **وَمِنْ**

الْأَنْعَمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ ر

لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ (الأنعام/ ٦: ١٤٢). فالجملة أعني قوله: "وإن لم تفعل فما بلغت" الآية، إنما

تفيد التهديد بظاهاها وتفيد إعلامه عليه السلام وإعلام غيره ما لهذا الحكم من الأهمية، وأن الرسول معذور في تبليغه.

وقوله تعالى: "والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين" قال الراغب: العصم بالفتح فالسكون الإمساك و الاعتصام الاستمسك الى أن قال والعصام بالكسر ما يعتصم به أي يشد، وعصمة الأنبياء حفظه إياهم أولا بما خصهم به من صفاء الجوهر، ثم بما أولاهم من الفضائل الجسمية والنفسية، ثم بالنصرة وبتثبيت أقدامهم، ثم بإنزال السكينة عليهم وبحفظ قلوبهم و بالتوفيق قال تعالى: "والله يعصمك من الناس" الآية.

والعصمة شبه السوار، والمعصم موضعها من اليد، وقيل للبياض بالرسغ عصمة تشبيها بالسوار، وذلك كتسمية البياض بالرجل تحجيلا، و على هذا قيل: غراب أعصم، انتهى.

وما ذكره من معنى عصمة الأنبياء حسن لا بأس به غير أنه لا ينطبق على الآية "والله يعصمك

من الناس" بل لو انطبق فإنما ينطبق على مثل قوله: وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت

طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ۚ

وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ

عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ (النساء/ ٤ : ١١٣).

وأما قوله: "والله يعصمك من الناس" فإن ظاهره أنها عصمة بمعنى الحفظ والوقاية من شر الناس المتوجه إلى نفس النبي الشريفة أو مقاصده الدينية أو نجاح تبليغه وفلاح سعيه، وبالجملة المعنى المناسب لساحته المقدسة.

وكيف كان فالمتحصل من موارد استعمال الكلمة أنها بمعنى الإمساك والقبض فاستعماله في معنى الحفظ من قبيل استعارة اللزوم فإن الحفظ يلزمه القبض.

وكان تعليق العصمة بالناس من دون بيان أن العصمة من أي شأن من شئون الناس كتعدياتهم بالإيذاء في الجسم من قتل أو سم أو أي اغتيال، أو بالقول كالسب والافتراء، أو بغير ذلك كتقليب الأمور بنوع من المكر والخديعة والمكيدة وبالجملة السكوت عن تشخيص ما يعصم منه لإفادة نوع من التعميم، ولكن الذي لا يعدو عنه السياق هو شرهم الذي يوجب انقلاب الأمر على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بحيث يسقط بذلك ما رفعه من أعلام الدين.

والناس مطلق من وجد فيه معنى الإنسانية من دون أن يعتبر شيء من خصوصياته الطبيعية التكوينية كالذكورة والأنوثة أو غير الطبيعية كالعلم والفضل والغنى وغير ذلك.

ولذلك قل ما ينطبق على غير الجماعة، ولذلك أيضا ربما دل على الفضلاء من الإنسان اذا كان الفضل روعي فيه وجود معنى الإنسانية كقوله تعالى: "إذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس" اي الذين وجد فيهم معنى الإنسانية وهو ملاك درك الحق وتمييزه من الباطل.

وربما كان دالا على نوع من الخسة وسقوط الحال، وذلك اذا كان الأمر الذي يتكلم فيه مما يحتاج الى اعتبار شيء من الفضائل الإنسانية التي اعتبرت زائدة على أصل معنى النوع كقوله: فَأَقْمَر

وَجَهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ

الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنۢ بَّ أَكْثَرِ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ (الروم/ ٣٠: ٣٠) كقولك لا تتق

بمواعيد الناس، ولا تستظهر بسوادهم نظرا منك الى أن الوثوق والاستظهار يجب أن يتعلقا بالفضلاء من الإنسان ذوي ملكة الوفاء بالعهد و الثبات على العزيمة لا على من ليس له إلا مجرد صدق اسم الإنسانية، وربما لم يفد شيئا من مدح او ذم إذا تعلق الغرض بما لا يزيد على أصل معنى الإنسانية

كقوله تعالى: يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ

لِتَعَارَفُوا ۗ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَدُّمُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ (الحجرات / ٤٩ : ١٣).

ولعل قوله: "والله يعصمك من الناس" اي أخذ فيه لفظ الناس اعتبارا بسواد الأفراد الذي فيه المؤمن والمنافق والذي في قلبه مرض، وقد اختلطوا من دون تمايز، فإذا خيف خيف من عامتهم، وربما أشعر به قوله: "إن الله لا يهدي القوم الكافرين" فإن الجملة في مقام التعليل لقوله: "والله يعصمك من الناس" وقد تقدم أيضا أن الآية نزلت بعد الهجرة وظهور شوكة الإسلام وكان السواد الأعظم من الناس مسلمين بحسب الظاهر وإن كان فيهم المنافقون وغيرهم.

فالمراد بالقوم الكافرين قوم هم في الناس مذكوري النعت محوي الاسم وعد الله سبحانه أن يبطل كيدهم ويعصم رسوله صلى الله عليه وآله وسلم من شرهم.

والظاهر أيضا أن يكون المراد بالكفر الكفر بأية من آيات الله وهو الحكم المراد بقوله: "ما أنزل

إليك من ربك"، كما في قوله في آية الحج قال تعالى: فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا يُرَاهِمُ^ط وَإِنَّ

دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتِطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۗ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ

اللَّهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ (آل عمران / ٣ : ٩٧). وأما الكفر بمعنى الاستكبار عن أصل

الشهادتين فإنه مما لا يناسب مورد الآية البتة إلا على القول بكون المراد بقوله: "ما أنزل إليك من ربك" مجموع رسالات الدين، وقد عرفت عدم استقامته.

والمراد بعدم هدايته تعالى هؤلاء القوم الكافرين عدم هدايته إياهم في كيدهم ومكرهم، ومنعه الأسباب الجارية أن تنقاد لهم في سلوكهم الى ما يرومونه من الشر و الفساد نظير قوله تعالى: سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ (المنافقون/ ٦٣ : ٦)، وقوله تعالى: ءَأَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ

رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمَّنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ ۚ وَكُتُبِهِ ۚ وَرُسُلِهِ ۚ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۗ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ (البقرة/ ٢:

٢٨٥)، وقد تقدم البحث عنه في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

وأما كون المراد بعدم الهداية هو عدم الهداية إلى الإيمان فغير صحيح البتة لمنافاته أصل التبليغ و الدعوة فلا يستقيم أن يقال: ادعهم الى الله او الى حكم الله و انا لا أهديهم اليه الا في مورد اتمام الحجة محضا.

وعلى أن الله سبحانه قد هدى ولا يزال يهدي كثيرين من الكفار بدليل العيان، وقد قال أيضا:

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَحوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا

مُسْكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ

هُزُوءًا ۚ وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ لِيُعْظِمَ بِهِ ۚ

وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ (البقرة/ ٢: ٢٣١).

فتبين أن المراد بعدم هداية الكافرين عدم تخليتهم ليناو ما يهمون به من إبطال كلمة الحق وإطفاء نور الحكم المتزل فإن الكافرين وكذا الظالمين و الفاسقين يريدون بشامة أنفسهم وضلال رأيهم أن يبدلوا سنة الله الجارية في الخلقة وسياقة الأسباب السالكة إلى مسبباتها ويغيروا مجاري الأسباب الحققة الظاهرة عن سمة عصيان رب العالمين إلى غايتهم الفاسدة مقاصدهم الباطلة والله رب العالمين لن يعجزه قواهم الصورية التي لم يودعها فيهم ولم يقدرها في بناهم إلا هو.

فهم ربما تقدموا في مساعيهم أحيانا ونالوا ما راموه أوينات واستعلوا واستقام أمرهم برهة لكنه لا يلبث دون أن يبطل أخيرا وينقلب عليهم مكرهم ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله، وكذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الباطل فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

وعلى هذا فقوله: "إن الله لا يهدي القوم الكافرين" تفسير قوله: "والله يعصمك من الناس" بالتصرف في سعة إطلاقه، ويكون المراد بالعصمة عصمته صلى الله عليه وآله وسلم من أن يناله الناس بسوء دون أن ينال بغيته في تبليغ هذا الحكم وتقريره بين الأمة كأن يقتلوه دون أن يبلغه أو يثوروا عليه ويقلبوا عليه الأمور أو يتهموه بما يرتد به المؤمنون عن دينه، أو يكيدوا كيدا يميت هذا الحكم ويقبره بل الله يظهر كلمة الحق وقيم الدين على ما شاء وأينما شاء ومتى ما شاء، وفيمن شاء قال تعالى: **إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ^ج وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا** (النساء/ ٤: ١٣٣).

وأما أخذ الآية أعني قوله: "والله يعصمك من الناس" بإطلاقه على ما فيه من السعة والشمول فمما ينافيه القرآن والمأثور من الحديث والتاريخ القطعي، وقد نال صلى الله عليه وآله وسلم من أمته أعم من كفارهم ومؤمنهم ومنافقيهم من المصائب والحن وأنواع الزجر والأذى ما ليس في وسع أحد أن يتحمله إلا نفسه الشريفة، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم كما في الحديث المشهور: ما أودى نبي مثل ما أوديت قط.^{٣٦}

قال تعالى: "يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك" أي جميعه غير خائف من شيء، "وان لم تفعل" أي ولم تبلغ جميعه وكتمت آية منه، "فما بلغت رسالته" أي وما ادبت شيئا منها كمن أضع

^{٣٦} السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج: ٦، ٤٣ - ٥٤.

ركن صلاة او فكأنك ما بلغت شيئاً منها فان كتمان البعض والكل سواء في الشناعة، "والله يعصمك من الناس" اي انا ناصرك وحافظ روحك فلا تخف أحداً، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرس من قبل ذلك فلما نزلت تلك الآية تركت الحراسة ويجاهد الأعداء بعيب دينهم وسب آهنتهم بلا خوف. قيل: المائدة آخر ما نزل من القرآن فلا يشكل بشج رأسه الأشرف صلى الله عليه وسلم او المراد حفظ روحه، "ان الله لا يهدي القوم الكافرين" اي بلغ اليهم رسالتك والله والهادي وليس عليك هداهم قيل معنى: لا يمكنهم مما يريدون بك من الهلاك، وقيل: الأمر بتبليغ كل ما قصد منه اطلاع الناس فإن من الأسرار ما يحرم إفشاؤه.^{٣٧}

الآية الخامسة، قال تعالى: **قَالَ سَأُوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ** ﴿٤٣﴾ (هود/ ١١: ٤٣).

قال تعالى: "قال سأوي الى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من امر الله" الخ، قال الراغب: المأوى مصدر أو يأوي أوياً ومأوى، تقول: أوى الى كذا، انضم اليه يأوي أوياً ومأوى وآواه غيره يؤويه إيواء، انتهى.

والمعنى: قال ابن نوح مجيباً لأبيه ردّاً لأمره: سأنضم الى جبل يعصمني ويقيني من الماء فلا أغرق، قال نوح: لاعاصم اليوم وهو يوم اشتد غضب الله وقضى بالغرق لأهل الأرض الآ من التجأ منهم الى

^{٣٧} البيهقي الشيرازي الشافعي، جامع البيان في تفسير القرآن، ج: ٢، ٤٨٤.

الله من الله لا جبل ولا غيره، وحال بين نوح وابنه الموج فكان ابنه من المغرقين ولو لم يحل الموج بينهما ولم ينقطع الكلام بذلك لعرف كفره وتبرأ منه. وفي الكلام إشارة الى ان أرضهم كانت ارضا جبلية لا مؤنة زائدة في صعود الإنسان الى بعض جبال كانت هناك.^{٣٨}

قال تعالى: "قال سأوي" اصبر والتجىء الى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من امر الله" اي عذابه "الآ من رحم" اي الآ الرّاحم وهو الله او عاصم بمعنى ذا عصمة كلابن وتامر الآ من رحم اي من رحمه الله او إستثناء منقطع يعني لكن من رحمه الله فهو معصوم، قيل: تقديره لا عاصم لأحد الآ من رحمه الله "وحال بينهما" بين نوح وولده "الموج فكان من المغرقين" صار منهم.^{٣٩}

الآية السادسة، قال تعالى: وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتْنَهَا عَن نَّفْسِهِ ۗ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۗ إِنَّا لَنَرْنَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَأَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا ۖ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ۖ وَقَالَتِ آخُزْجِ عَلَيْنَّ ۗ فَمَتَّ رَأْيِنَهُ ۗ أَكْبَرْنَهُ ۖ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا ۖ إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ ۖ عَنِ نَفْسِهِ ۖ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ ۖ لَيَسْجُنَنَّ ۖ وَلَيَكُونًا ۖ مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ (يوسف / ١٢ : ٣٠ - ٣٢).

^{٣٨} السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج: ١٠، ٢٢١.

^{٣٩} البيهقي الشيرازي الشافعي، جامع البيان في تفسير القرآن، ج: ٢، ١٧٨.

قال تعالى: "وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا أنا لنراها في ضلال مبين" قصة نسوة مصر مع يوسف في بيت العزيز تتضمنها الآية الى تمام ست آيات، والذي يعطيه التدبر فيها بما ينضم اليها من قرائن الأحوال وما يستوجبه طبع القصة أنه لما كان من أمر يوسف والعزيرة ما كان، وشاع الخبر في المدينة تدريجاً، وصارت النساء وهن سيدات المدينة يتحدثن به في مجامعهن ومحافلهن فيما بينهن ويعبرن بذلك عزيرة مصر ويعبئها لها تولت الى فتاها وافتتنت وقد أحاط بها حبا فظلت تراوده عن نفسه، وضلت به ضلال مبيناً، وكان ذلك مكرًا منهن بها على ما طبع أكثر من الحسد والعجب فإن المرأة تغلبها العواطف الرفيقة والإحساسات اللطيفة وركوز لطف الخلقه وجمال الطبيعة فيها مشغوفة القلب بالزينة والجمال متعلقة الفؤاد برسوم الدلال، ويورث ذلك فيها وخاصة في الفتيات إعجاباً بالنفس وحسداً للغير. وبالجملة كان تحديثهن بحديث الحب والمرادة مكرًا منهنّ بالعزيرة وفيه بعض السلوة لنفوسهن والشفاء لغيلل صدورهن ولما يرين يوسف، ولا شاهدن منه ما شاهدته العزيرة فولها وهتك سترها وانما كن يتخيلن شيئاً ويقايسن قياساً، واين الرواية من الدراية والبيان من العيان. وشاع التحديث به في المسامرات حتى بلغ الخبر امرة العزيز تلك التي لا همّ لها الا ان تفوز في طلب يوسف وبلوغ ما تريد منه ولا تعباً في حبه بشيئ من الملك والعزة الا لأنّ تتوصل به الى حبه لها وميله اليها وانجابه لطلبها فاستيقظت من رقدتها وعلمت بمكرهن بها فأرسلت اليهن للحضور لدينها وانهن سيدات ونساء أشرف المدينة وأركان البلاد ممن له رابطة المعاشرة مع بيت العزيز او لياقة الحضور فيه، فتهيأن للحضور وتبرزن بأحسن الجمال وواقع

الزينة على ما هو الدأب في أمثال هذه الإحتفالات من أمثال هؤلاء السيدات، وكل تمنى ان ترى يوسف وتشاهد ما عنده من الحسن الذي أوقع على العزيزة ما أوقع وفضحها، والعزيزة لا هم لها يومئذ إلا ان تريهن يوسف حتى يعذرنه وشتغلن عتها بأنفسهن فتتخلص من لساكن فتأمن مكرهن وهي لا تعباً بأتتاكن بيوسف ولا تخاف عليه منهن لأنها على ما تزعم مولاته وصاحبته ومالكة أمره وهو فتاها المخصوص بها وهي تعلم ان يوسف ليس بالذي يرغب فيهن او يصبو اليهن وهو لاينقاد لها فيما تريد منه بما عنده من الإعتصام والإعتزاز عن هذه الأهواء والأميال، ثم لما حضرن عند العزيزة وأخذن مقاعدهن ووقع الإنس وجرت المحادثة والمفاوضة وأخذن في التفكه آت كل واحدة منهن سكيناً وقد هيأت لهن وقدمت اليهن الفاكهة وعند ذلك أمرت يوسف ان يخرج اليهن وقد كان مستورا عنهن، فلما طلع يوسف عليهن ووقعت عليهن طارت عقولهن وطاحت أحلامهن ولم يدرين دون ان قطعن ايديهن مكان الفاكهة التي فيها لما دخل عليهن من البهت والذهول وهذه خاصة الوله والفرع فإن نفس الإنسان اذا انجذبت الى شئ مما تفرط في حبه او تخافه وتقول اضطربت وبهتت ففجأها الموت اوسلبت الشعور اللازم في تدبير القوى والأعضاء وتنظيم الأمر، فرمما أقدم مسرعا الى الخطر الذي أدهشه لقاءه وربما نسي الفرار فبقي كالجماذ الذي لا حراك به، وربما يفعل غير ما هو قاصده وفاعله اختباطا، ونظائرها في جانب الحب كثيرة وحكايات المتولبين من العشاق مشهورة، وكان هذا هو الفريق بين العزيزة وبينهن فإن استغراقها في حب يوسف انما حصل تدريجاً، وأما نساء المدينة فإنهن فوجئن به دفعة فغشيت قلوبهن غاشية الجمال،

وغادرهن الحب ففضحن وأطار عقلمن وأضل رأيهن فنسين الفاكهة وقطعن أيديهن وتركن كل تجلد واصطبار، وأبدن ما في أنفسهن من وله الحب، وقلنا: "حاش لله ما هذا بشرا ان هذا الآ ملك كريم".

هذا وهن في بيت العزيز وهو بيت يجب فيه التحفظ على كل أدب ووقار، وكان يجب أن يتقينها ويحتشمن موقعها وهن شريفات ذوات جمال وذوات بعولة وذوات خدر وستر وهذه كلها جهات مانعة عن الخلاعة والتهتك وهن لم ينسين ما كن بالأمس يتحدثن به ويلمن ويذمن امرأة العزيز في حبها ليوسف وهما في بيت واحد منذ سنين، فكان من الواجب على كل منهن ان تتقي صواحبا فلا تتهتك وهن ويعلمن ما انجر اليه أمر امرأة العزيز من سوء الذكر وفضاحة الشهرة هذا كله ويوسف واقف أمامهن يسمع قولهن ويشاهد صنعهن، لكن الذي شاهدنه على المفاجأة من حسن يوسف نسخ ما قدرنه من قبل في أنفسهن وبدل مجلس الأدب والإحتشام حفلة عيش لا يكتن محتفلوها من أنفسهم ضميرا، ولا يبالي حضارها ما قيل او يقال فيهم ولم يلبثن دون ان قلنا: "حاش لله ما هذا بشرا ان هذا الآ ملك كريم"، وقد قلنا غير بعيد: "امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا انا لنراها في ضلال مبين"، وكلامهن هذا بعد قولهن ذاك إعدار منهن فمفاده أن الذي كنا نقوله قبل انما هو حق لو كان هذا بشرا وليس به يذم الإنسان ويعاب لو ابتلي بهوى بشر ومرادته وكان في وسعه ان يكتفي عنه بما يكافئه ويغني عنه، واما الجمال الذي لا يعادله جمال ويسلب كل حزم واختيار فلا لوم على هواء ولا ذم في غرامه، ولهذا انقلب المجلس دفعة وانقطعت

قيود الإحتشام فانبسطن وتظاهرن بالقول في حسن يوسف وكل تتكلم بما في ضميرها منه، وقالت امرأة العزيز: "فذلكن الذي لمتني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم" فأبدت سرا ما كانت تعترف به قبل ثم هددت يوسف تجلدا وحفظا لمقامها عندهن وطمعا في مطاوعته وانقياده: "ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين".^{٤٠}

قال تعالى: "وقال نسوة" اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيته غير حقيقى "في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه" اي تطلب من عبدها الفاحشة "قد شعفها حبًا" اي حرق حبه شعاف اي حجاب قلبها، فوصل الى الفؤاد وحبًا تمييزًا، وفاعل شعف ضمير الفتى "أنا لنراها في ضلال مبين. فلما سمعت بمكرهن" تسميته مكرًا لما علمت انهن اردنا بهذا القول ان تريهن يوسف او لأنهن افشين سرها "ارسلت اليهن" دعوتهن "واعتدت لهن متكئا" اي ما يتكأ عليه، قال أكثر السلف: المتكأ المجلس المعد فيه مفارش ومخاد وطعام فيه ما يقطع بالسكين "وأتت كل واحدة منهن سكينا" لقطع ما في المائدة مما يحتاج اليه "وقالت" حين أخذن السكاكين "اخرج" يا يوسف "عليهن فلما رأينه أكبرنه" عظمته وهبن ذلك الحسن وقيل: أكبرنه اي حضن له من شدة الشبق فإن المرأة اذا اكبرت او الهاء للسكت "وقطعن أيديهن" جرحنها من فرط الحيرة "وقلنا حاش لله" اصله حاشا فحذفت الألف تخفيفا وهي من حروف الجرّ وضعت موضع التثنية والبراءة كأنه قال: براءة ثم قال: لله، لبيان من يبرى ويتره كسقى لك والمعنى تثريبها لله من العجز وتعجبا من قدرته على هذا الخلق الجميل "ما هذا

^{٤٠} السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج: ١١، ١٤٨ - ١٥١.

بشرا" فإنه لم يعهد للبشر مثل ذلك الجمال وأعمل ما عمل ليس لمشاركتها في نفى الحال وهو لغة الحجاز "ان هذا الأ ملك كريم" فإن جماله فوق جمال البشر.

قال تعالى: "قالت فذلكنّ الذي لُمتنني فيه" وضع ذلك موضع هذا رفعا لمرتلته واستبعاد لمحلّه في الحسن "ولقد راودته عن نفسه فاستعصم" اي بالغ في عصمته عندهنّ لما علمت انهنّ يعذرنا "ولئن لم يفعل ما أمره" بحذف حرف الجر، اي ما أمر به "ليُسجننّ وليكونا من الصّاغرين" من الأذلاء والنون الخفيفة يكتب في خط المصحف ألفا على حكم الوقف.^{٤١}

الآية السابعة، قال تعالى: وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۗ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۗ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۗ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۗ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ (الحج/ ٢٢: ٧٨).

قال تعالى: "وجاهدوا في الله حقّ جهاده" الى آخر الآية. الجهاد بذل الجهد واستفراغ الوسع في مدافعة العدو، ويطلق في الأكثر على المدافعة بالقتال لكن ربما يتوسع في معنى العدو حتّى يشمل كل ما يتوقع منه الشر كالشيطان الذي يضل الإنسان والنفس الأمانة بأسوء وغير ذلك فيطلق اللفظ على مخالفة النفس في هواها والإجتناح عن طاعة الشيطان في وسوسته، وقد سمى النبي صلّى الله

^{٤١} البيهقي الشيرازي الشافعي، جامع البيان في تفسير القرآن، ج: ٢، ٢٢٢.

عليه وسلّم مخالفة النفس جهادا أكبر. والظاهر أنّ المراد بالجهاد في الآية هو المعنى الأعم وخاصة بالنظر الى تقييده بقوله "في الله" وهو كلّ ما يرجع اليه تعالى، ويؤيده ايضا قوله: **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا**

فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ (العنكبوت / ٢٩ : ٦٩). وذلك فمعنى

كون الجهاد فيه حقّ جهاده ان يكون متمخّصا في معنى الجهاد ويكون خالصا لوجهه الكريم لايشاركة فيه غيره نظير تقوى الله حقّ تقواه في قوله: **إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ**

يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴿١٢٤﴾ (آل عمران / ٣ : ١٢٤). وقوله: "هو

اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج" امتنان منه تعالى على المؤمنين بأنهم ماكانوا لينالوا سعادة الدين من عند انفسهم وبحولهم غير أنّ الله من عليهم اذ وفقهم فاجتباهم وجمعهم للدين، ورفع عنهم كلّ حرج في الدين امتنانا سواء كان حرجا في اصل الحكم او حرجا طارئا اتفقا فهي شريعة سهلة سمحة ملّة ابيهم ابراهيم الحنيف الذي أسلم لربّه. وانما سمي ابراهيم ابا المسلمين لأنته

صلّى الله عليه وسلّم أوّل من أسلم كما قال تعالى: **إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمِ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ**

الْعَلَمِينَ ﴿١٣١﴾ (البقرة / ٢ : ١٣١). وقال تعالى: **رَبِّ إِيْمَنَ أَضَلَّلَنَّا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن**

تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَافِرٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ (ابراهيم / ١٤ : ٣٦) فنسب اتباعه

الى نفسه، وقال أيضا: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ

نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٦٨﴾ (ابراهيم/ ١٤ : ٣٥) ومراده بينه المسلمون دون المشركين قطعاً، وقال:

إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ

الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ (آل عمران/ ٣ : ٦٨). وقال تعالى: "هو سَمَّاكم المسلمين من قبل وفي هذا" امتنان

ثان منه تعالى على المؤمنين بعد الإمتنان بقوله "هو اجتباكم" فالضمير له تعالى، وقوله "من قبل" اي

من قبل نزول القرآن، وقوله "وفي هذا" اي وفي هذا الكتاب وفي امتنانه عليهم بذكر أنه سماهم

المسلمين دلالة على قبوله تعالى أسلامهم. وقال تعالى: "ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء

على الناس" المراد به شهادة الأعمال وقد تقدم الكلام في معنى الآية في سورة البقرة آية ١٤٣ وغيرها

وفي الآية تعليل ما تقدم من حديث الإجتباء ونفي الحرج وتسميتهم مسلمين. وقال تعالى: "فأقيموا

الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله" تقرير على جميع ما تقدم مما امتن به عليهم اي فعلى هذا يجب

عليكم ان تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وهو اشارة الى العمل بالأحكام العبادية والمالية وتعتصموا بالله

في جميع الأحوال فتأتمروا بكل ما أمر به وتنتهوا عن جميع ما نهى عنه ولا تنقطعوا عنه في حال لأنه

مولاكم وليس للعبد ان ينقطع عن مولاه في حال ولا للإنسان الضعيف ان ينقطع عن ناصره بوجهه

على الإحتمالين في معنى المولى. فقال تعالى: "هو مولاكم" في مقام التعليل لما قبله من الحكم، وقال

تعالى: "فنعلم المولى ونعم النصير" كلمة مدح له تعالى وتطبيب لنفوس المؤمنين وتقوية لقلوبهم بأن مولاكم ونصيرهم هو الله الذي لا مولى غيره ولا نصير سواه.

واعلم ان الذي أوردناه من معنى الإجتباء وكذا الإسلام وغيره في الآية هو الذي ذكره جلّ المفسرين بالبناء على ظاهر الخطاب بـ "يا أيها الذين آمنوا" في صدر الكلام وشمولة عامة المؤمنين وجميع الأمة. وقد بيّنا غير مرّة ان الإجتباء بحقيقة معناه يساوق جعل العبد مخلصا ومخصوصا بالله لا نصيب لغير تعالى فيه، وهذه صفة لا توجد الا في آحاد معدودين من الأمة دون الجميع قطعا، وكذا الكلام في معنى الإسلام والإعتصام والمعنى بحقيقته مراد في الكلام قطعا. وعلى هذا فنسبة الإجتباء والإسلام والشهادة الى جميع الأمة توسع من جهة اشتغالهم على من يتّصف بهذه الصفات بحقيقتها نظير قوله في بني إسرائيل كقوله: وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ۖ يَا قَوْمِ أَدْعُوا رَبَّكُمْ ۖ لِمَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ مَا أَنزَلْنَا إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ ۚ وَقَالَ قَوْمٌ لَّوْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۚ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۖ يَا قَوْمِ إِنِّي كُنْتُ نَذِيرًا لَّكُمْ أَنبِيًّا ۖ فَرِحْتُمْ بِالنَّذِيرِ ۖ فَذُوقُوا كَذَابَ إِلَهِكُمْ ۖ إِذْ لَبَّيْتُمْ فَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ الْوَحْيَ ۖ فَاذْكُرُوا أَنبِيَاءَ اللَّهِ ۖ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَّا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ (المائدة/

٥: ٢٠)، وقوله تعالى: وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ

الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ (الحاثية/ ٤٥: ١٦).^{٤٢}

^{٤٢} السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج: ١٤، ٤١٦.

قال تعالى: "وجاهدوا في الله" في سبيله "حقّ جهاده" اي اقموا بمواجهه وشرائطه على وجه التمام بقدر الواسع، واطافة الجهاد الى الله للملابسة "هو اجتباكم" اختاركم ي أمّة محمد لنصرة دينه بالدين ملّة ابراهيم نحو: الحمد لله الحمد او مصدر لفغله دلّ عليه مضمون ما قبله بحذف مضاف اي وسع دينكم توسعة ملّته وهو ابو نبينا ونبينا كالأب لأمته او أكث العرب من ذريته فهو من باب التغليب "هو" اي الله "سماكم المسلمين" اي بهذا الإسم الأكرم "من قبل" في سائر الكتب "وفي هذا" القرآن، وفي الشواذ لله بدل هو، وفي النسائ قال: من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جنّاء جهنم، قال رجل: يا رسول الله: وان صام وصلّى؟ قال: نعم وان صام وصلّى، فادعوا بدعوة الله التي سماكم بما المسلمون المؤمنون عباد الله، وقال عبد الرحمن بن زيد با أسلم الضمير لإبراهيم فإنه دعى بقوله تعالى:

رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ^ط

إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ (البقرة/ ٢: ١٢٨)، وفي هذا معناه وفي القرآن بيان تسميته

أيّاكم بهذا الإسم حيث حكى فيه مقالته او لما كان تسميتهم في القرآن بسبب تسميته من قبل كأنها منه، وفيه بعد "ليكون الرسول شهيدا عليكم" يوم القيامة بأنه بلغكم رسالته ولعصمته تقبل شهادته لنفسه، قيل: يشهد عليكم بطاعة من أطاع وعصيان من عصى "وتكونوا شهداء على الناس" بأنّ الرسل بلغتهم "فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة" اي اذا خصّكم بتلك الكرامات فتقربوا اليه بأنواع

الطاعات "واعتصموا" اي وثقوا "بالله" لا الى سواه "هو مولاكم فنعمة المولى" هو "ونعم التصير" هو
فإنه لا مولى ولا نصير على الحقيقة سواه.^{٤٣}

الآية الثمانية، قال تعالى: **يَوْمَ تُؤَلُّونَ مَدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ**^ق
وَمَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ (المؤمن او غافر / ٤٠ : ٣٣).

قال تعالى: "يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم" المراد به يوم القيامة ولعل المراد
أنهم يفرون في النار من شدة عذابها ليتخلصوا منها فردوا اليها كما قال تعالى: **كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ**
يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ (الحاج / ٢٢ : ٢٢).

وقال تعالى: "ومن يضل الله فما له من هاد" بمتلة التعليل لقوله: "ما لكم من الله من
عاصم" اي تفرون مدبرين ما لكم من عاصم ولو كان لكان من جانب الله وليس وذلك لأن الله
أضلهم ومن يضل الله فما له من هاد.^{٤٤}

وقال تعالى: "يوم تولون" عن الموقف "مدبرين" فارين عن النار ذاهبين "ما لكم من الله من
عاصم" يعصمكم من عذابه "ومن يضل الله فما له من هاد ولقد جاءكم يوسف من قبل" اي

^{٤٣}ابن السبكي الشافعي، جامع البيان في تفسير القرآن، ج: ٣، ٧٣ - ٧٤.

^{٤٤}السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج: ١٧، ٣٣١.

يوسف بن يعقوب بعثه الله من قبل موسى رسولا يدعو القبط الى طاعة الله وحده فما أطاعوه تلك الطاعة، نعم أطاعوه لجرد الوزارة والجاه الدنيوى وهذا ايضا من كلام مؤمن آل فرعون.^{٤٥}

الآية التاسعة، قال تعالى: يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۗ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۗ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۚ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۚ وَءَاتُوهُنَّ مَّا أَنفَقُوا ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسْئَلُوا مَّا أَنفَقْتُمْ وَلَيْسَ ءَلَيْكُمْ مَّا أَنفَقُوا ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ۗ تَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ (المتحنة/ ٦٠: ١٠).

قال تعالى: "ياايها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن" الآية، سياق الآية يعطي انها نزلت بعد صلح الحديبية، وكان في العهد المكتوب بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين أهل مكة أنه ان لحق من أهل مكة رجل بالمسلمين ردوه اليهم وان لحق من المسلمين رجل بأهل مكة لم يردوه اليهم ثم ان بعض نساء المشركين أسلمت وهاجرت الى المدينة فجاء زوجها يستردها فسأل النبي صلى الله عليه وسلم ان يردها اليهم فأجابه النبي أن الذي شرطوه في العهد ردّ الرجال دون النساء ولم يردها اليهم وأعطاه ما انفق عليها من المهر وهو الذي تدل عليه الآية مع ما يناسب ذلك من احكامهن.

^{٤٥} البيهقي الشيرازي الشافعي، جامع البيان في تفسير القرآن، ج: ٤، ١٥.

وسمّاهن مؤمنات قبل امتحانهن والعلم بإيمانهن لتظاهرن بذلك، وقال تعالى: "فامتحانوهن" اي اختبروا إيمانهن بما يظهر به ذلك من شهادة وحلف يفيد العلم والوثوق، وقال تعالى: "الله اعلم بإيمانهن" اشارة الى انه يجزي في ذلك العلم العادي والوثوق دون اليقين بحقيقة الإيمان الذي هو تعالى اعلم به علما لا يتخلف عنه معلومه.

وقال تعالى: "فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعهن الى الكفار" ذكرهم بوصف الإيمان للإشارة الى أنه السبب للحكم وانقطاع علاقة الزوجية بين المؤمنة والكافر، وقال تعالى: "لاهن حل لهم ولا هم يحلون لهن" مجموع الجملتين كناية عن انقطاع علاقة الزوجية، وليس من توجيه الحرمة اليهن في شيء، وقال تعالى: "وآتوهم ما انفقوا" اي أعطوا الزوج الكافر ما انفق عليها من المهر، وقال تعالى: "ولا جناح عليكم ان تنكحوهن اذا آتيتوهن اجورهن" رفع المانع من نكاح المؤمنات المهاجرات اذا اوتين اجورهن والأجر المهر، وقال تعالى: "ولا تمسكوا بعصم الكوافر" العصم جمع عصمة وهي النكاح الدائم يعصم المرأة ويحصنها، وامسك العصمة ابقاء الرجل بعد ما اسلم زوجته الكافرة على زوجيتها فعليه بعد ما اسلم ان يخلي عن سبيل زوجته الكافرة سواء كانت مشركة او كتابية.

وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِيْنَ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ ۚ وَلَا أُمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ

خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِيْنَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ

خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ^ط أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ^ط وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ
وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ^ط وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ (البقرة/ ٢ : ٢٢١)، وقال
تعالى: الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ
لَّهُمْ ^ط وَالْحَصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْحَصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا
ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ^ط وَمَنْ يَكْفُرْ
بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٥٠﴾ (المائدة/ ٥ : ٥) ان لا نسخ
بين الآيتين وبين الآية التي نحن فيها.

وقال تعالى: "واسألوا ما انفقتم وليسألوا ما انفقوا" ضمير الجمع في "واسألوا" للمؤمنين وفي
"ليسألوا" للكفار اي ان لحقت امرأة منكم بالكفر فاسألوهم ما انفقتم لها من مهر ولهم ان يسألوا
مهر من لحقت بكم من نسائهم.^{٤٦}

قال تعالى:

الآية في الإعتصام معنويا:

^{٤٦} السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج: ١٩، ٢٥٠ - ٢٥١.

الآية الأولى، قال تعالى: لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ^ط قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ^ج فَمَنْ يَكْفُرْ
بِالطَّغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ^ط وَاللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ (البقرة/ ٢: ٢٥٦).

قوله تعالى: "لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي" الإكراه هو الإجبار والجمل على
الفعل من غير رضى، والرشد بالضم والضميتين: إصابة وجه الأمر ومحجة الطريق ويقابله الغي، فهما
أعم من الهدى والضلال فإنهما أصابة الطريق الموصل وعدمها على ما قيل، والظهير أن استعمل
الرشد في إصابة محجة الطريق من باب الإنطباق على المصداق، فإن إصابة وجه الأمر من سالك
الطريق ان يركب المحجة وسواء السبيل، فلزومه الطريق من مصاديق إصابة وجه الأمر، فالحق ان معنى
الرشد والهدى معنيان مختلفان ينطبق أحدهما بعناية خاصة على مصاديق الآخر وهو ظاهر، قال تعالى:

وَابْتَلُوا الَّتِي تَمَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ ^ط أَمْوَالَهُمْ

وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ^ط وَمَنْ كَانَ عَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ^ط وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا

فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ^ج فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ^ج وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾

(النساء/ ٤: ٦)، وقال تعالى: قَالَ بَلْ رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا

عَلَىٰ ذِكْرٍ مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ (الأنبياء/ ٢١: ٥٦)، وكذلك القول في الغي والضلال،

ولذلك ذكرنا سابقا: ان الضلال هو العدول عن الطريق مع ذكر الغاية والمقصد، والغى هو العدول مع نسيان الغاية فلا يدري الإنسان الغوي ماذا يريد ماذا يريد وماذا يقصد. وفي هذه الآية "لا اكراه في الدين" نفي الدين الإجبار، ولما أن الدين وهو سلسلة من المعارق العلمية التي تتبعها أخرى عملية يجمعها أنها اعتقادات، والإعتقاد والإيمان من الأمور القلبية التي لا يحكم فيها الإكراه والإجبار، فإن الإكراه إنما يؤثر في الأعمال الظاهرية والأفعال والحركات البدنية المادية، وأما الإعتقاد القلبي فله علل وأسباب أخرى قلبية من سنخ الإعتقاد والإدراك، ومن المحال ان ينتج الجهل علما او تولد المقدمات غير العلمية تصديقا علميا، فقوله "لا اكراه في الدين" ان كان قضية اخبارية حاكية عن حال التكوين أنتج حكما دينيا بنفي الإكراه على الدين والإعتقاد، وان كان حكما إنشائيا تشريعا كما يشهد به ما عقبه تعالى من قوله "قد تبين الرشد من الغي" كان نهيها عن الحمل على الإعتقاد والإيمان كرها وهو نهي متك على حقيقة تكوينية وهي التي مرّ بياها أن الإكراه إنما يعمل ويؤثر في مرحلة الأفعال البدنية دون الإعتقادات القلبية. وقد بين تعالى هذا الحكم في هذا الآية وهو في مقام التعليل، فإن الإكراه والإجبار إنما يركن اليه الأمر الحكيم والمربي العاقل في الأمور المهمة التي لاسبيل الى بيان وجه الخير والشر فيها، وقرر وجه الجزء الذي يلحق فعلها وتركها فلا حاجة فيها الى الإكراه بل للإنسان ان يختار لنفسه ما شاء من طرفي الفعل وعاقبتي الثواب والعقاب، والدين لما انكشفت حقائقه واتضح طريقه بالبيانات الإلهية الموضحة بالسنة النبوية فقد تبين أن الدين رشد والرشد في اتباعه، والغى في تركه والرغبة عنه، وعلى هذا لا موجب لأن يكره أحد أحدا على الدين.

وهذه إحدى الآيات الدالة على أنّ الإسلام لم يبتن على السيف والدم، ولم يفت بالإكراه والعنوة على خلاف ما زعمه عدة من الباحثين من المنتحلين وغيرهم أنّ الإسلام دين السيف واستدوا عليه بالجهاد الذي هو أحد أركان هذا الدين. وأنّ القتال الذي ندب إليه الإسلام لغاية إحراز التقدم وبسط الدين بالقوة والإكراه، بل لإحياء الحق والدفاع عن انفس متاع للفطرة وهو التوحيد، وأما بعد انبساط التوحيد بين الناس وخضوعهم لدين النبوة ولو بالتهود والتنصر فلا نزاع لمسلم مع موحد ولا جدال، فالإشكال ناشئ عن عدم التدبير. قوله تعالى: "فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى" الخ، الطاغوت هو الطغيان والتجاوز عن الحد ولا يخلو عن مبالغة في المعنى كالملكوت والجبروت، ويستعمل فيما يحصل به الطغيان كأقسام المعبودات من دون الله كالأصنام والشياطين والجن وأئمة الضلال من الإنسان وكل متبوع لا يرضى الله سبحانه باتباعه، ويستوي فيه المذكر والمؤنث والمفرد والتثنية والجمع، وإنّما قدم الكفر على الإيمان في قوله: "فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله" ليوافق الترتيب الذي يناسبه الفعل الواقع في الجزء أعني الإستمسك بالعروة الوثقى لأن الإستمسك بشيء إنّما يكون بترك كل شيء والأخذ بالعروة، فهنا ترك ثم أخذ، فقدم الكفر وهو ترك على الإيمان وهو أخذ ليوافق ذلك، والإستمسك هو الأخذ والإمساك بشدة، والعروة هو ما يؤخذ به من الشيء كعروة الدلو وعروة الإناء أو كل ما له أصل من النبات وما لا يسقط ورقه. وفي هذه الآية أيضا موضوع على الإستعارة للدلالة على أنّ الإيمان بالنسبة الى السعادة الحقيقية لا يستقر أمرها ولا يرجي نيلها إلا ان يؤمن الإنسان بالله ويكفر بالطاغوت. قوله

تعالى: "لا انفصام لها والله سميع عليم" الانفصام هو الإنقطاع والإنكسار، والجملة في موضع الحال من العروة تؤكد معنى العروة الوثقى ثم عقبه بقوله "والله سميع عليم" لكون الإيمان والكفر متعلقا بالقلب واللسان. ٤٧

قال تعال: "لا اكراه في الدين" نزلت في رجل مسلم له ابنان نصرانيان اراد اكراههما لدخولهما في الإسلام فالحكم خاص بأهل الكتاب او منسوخ بآية القتال وهو خبر بمعنى الأمر، وقيل: خبر حقيقة، اذ الإكراه إلزام الغير فعلا لا يرى فيه خيرا لكن قد تمييز الإيمان من الكفر بالحجج والآيات فلا يحتاج الى الإكراه، ولهذا قال "قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت" اي الشيطان "ويؤمن بالله فقد استمسك" اي طلب الإمساك من نفسه او تمسك "بالعروة الوثقى" من الحبل الوثيق المحكم "لا انفصام لها" اي المأمون من الإنقطاع وهو الإيمان "والله سميع" بالأقوال "عليم" بالنيات. ٤٨

الآية الثانية، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (لقمان / ٣١ : ٢٢).

قوله تعالى: "ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الأمور" استئناف ويحتمل ان يكون حالا من مفعول "يدعوهم" وفي معنى الجملة الحالية ضمير

٤٧ السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج: ١، ٣٤٨ - ٣٥٠.

٤٨ البيهقي الشيرازي الشافعي، جامع البيان في تفسير القرآن، ج: ١، ١٩٠.

عائد اليهم، والمعنى: او لو كان الشيطان يدعوهم الى كذا والحال ان من أسلم وجهه الى الله كذا فقد نجا وأفلح والحال ان عاقبة الأمور الى الله فيجب ان يكون هو المعبود. وإسلام الوجه الى الله تسليمه له وهو إقبال الإنسان بكليته عليه بالعبادة وإعراضه عمّن سواه، والإحسان الإتيان بالأعمال الصالحة عن إيقان بالآخرة كما فسّر في أول السورة قال تعالى: "هدى ورحمة للمحسنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون" والعروة الوثقى المستمسك الذي لانفصام له. والمعنى: ومن وحّد الله عمل صالحا مع اليقين بالمعاد فهو ناج غير هالك البتة في عاقبة أمره لأنها الى الله وهو الذي يعد بالنجاة والفلاح. ومن هنا يظهر ان قوله "والى الله عاقبة الأمور" في مقام التعليل لقوله "فقد استمسك بالعروة الوثقى" بما أنه استعارة تمثيلية عن النجاة والفلاح.^{٤٩}

قال تعالى: "ومن يسلم وجهه الى الله" اي معنى أسلم ان استعمل مع اللام والإخلاص كما قال تعالى: **بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۖ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** (البقرة/ ٢: ١١٢)، وان استعمل مع الى فإنه سلم اليه نفسه كما يسلم الى احد، وانقاد لأوامر الله وتوكل عليه "وهو محسن" في عمله باتباعه الشرع "فقد استمسك بالعروة

^{٤٩} السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج: ١٦، ٢٣٦.

الوثقى" اي اعتصم بأوثق جبل مثل حال المتوكل المطيع بحال من أراد ان يتدلى من شاهق فاستمسك بأوثق عروة من جبل مأمون انقطاعه "والى الله عاقبة الأمور" مرجعها اليه.^{٥٠}

الآية الثالثة، قال تعالى: فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

(الزخرف/ ٤٣: ٤٣).

قوله تعالى: "فاستمسك بالذي أوحى إليك على صراط مستقيم" الظاهر أنه تفریع لجميع ماتقدم من أن انزال الذكر من طريق الوحي والنبوة من سننه تعالى وأن كتابه النازل عليه حق وهو رسول مبين لا يستجيب دعوته إلا المتقون ولا يعرض عنها إلا قرناء الشياطين، ولا مطمع في إيمانهم وسينتقم الله منهم. فأكد عليه الأمر بعد ذلك كله ان يجد في التمسك بالكتاب الذي أوحى اليه لأنه على صراط مستقيم.^{٥١}

قال تعالى: "فاستمسك بالذي أوحى إليك" ولما ردّ وبين حياته وموته صلى الله عليه وسلم أمره بالإشتغال بشغله فقال: "فاستمسك بالذي" الآية، ومن الشرائع "أنت على صراط مستقيم" اي الذي أوحى إليك.^{٥٢}

ب. وأهميته الإعتصام:

^{٥٠} إبيجى الشيرازي الشافعي، جامع البيان في تفسير القرآن، ج: ٣، ٣١٧.

^{٥١} السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج: ١٨، ١٠٧.

^{٥٢} إبيجى الشيرازي الشافعي، جامع البيان في تفسير القرآن، ج: ٤، ٨٦.

انَّ نِعْمَ اللَّهُ عَلَيْنَا عَظِيمَةٌ، وَأَعْظَمُ هَذِهِ النِّعْمِ بَعْدَ نِعْمَةِ الْإِيمَانِ وَالْمَهْدَايَةِ هِيَ نِعْمَةُ الْأَخُوَّةِ فِي اللَّهِ الَّتِي جَعَلَتْ أَبْنَاءَ أُمَّةِ الْإِسْلَامِ تَرْبِطُهُمْ عِلَاقَةٌ مَتْنِيَّةٌ رَاسِخَةٌ هِيَ عِلَاقَةُ الدِّينِ الَّتِي هِيَ أَقْوَالٌ مِنْ عِلَاقَةِ السَّنْبِ وَهِيَ الْعِلَاقَةُ الَّتِي جَعَلَتْ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا كَالسَّجْدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى رَغْمَ اخْتِلَافِ أَلْوَانِهِمْ وَأَجْنَاسِهِمْ وَلِغَاثِهِمْ يُوْحِدُ الْإِعْتِصَامَ بِجِبِلِّ اللَّهِ وَالْإِنْضَاءَ تَحْتَ رَايَةِ "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَمُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ".

ولقد ذكر الله سبحانه ورسوله وأصحابه بهذه النعمة العظيمة بعد ان كانوا قبل الإسلام متقاتلين متحاربين لأقل الأسباب وانفجها فقال تعالى: **وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا^{٥٣} وَأذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** (ال عمران / ٣ : ١٠٣)، وأمرهم الله سبحانه ان يذكروا نعمة عليهم

اذ كانوا أعداء مختلفين يقتل بعضهم بعضا وينهب بعضهم فأصبحوا بسبب هذه النعمة اخوانا متحابين.^{٥٣} وعن ابن جريج في قوله تعالى: "إذ كنتم أعداء" ما كان بين الأوس والخزرج في شأن عائشة، وأخرج ابن إسحاق قال: كانت الحرب بين الأوس والخزرج عشرين ومائة سنة حتى قام

^{٥٣} محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ٢٣٦. انظر

أيضا محمود هاشم عنبر، الاعتصام بجبل الله بين الواقع والمبشرات، ١٠.

الإسلام فأطفأ الله ذلك وألف بينهم. فالأخوة المعتصمة بحبل الله نعمة يمتن الله بها على الجماعة المسلمة الأولى وهي نعمة يهبها الله لمن يحبهم من عباده وهو هنا يذكرهم بهذه النعمة، يذكر كيف كانوا في الجاهلية أعداء، وما كان أعدى من الأوس والخزرج في المدينة أحد وهما الحيان الغريبان في يثرب، يجاورهما اليهود الذين كانوا يوقدون حول هذه العداوة وينفخون في نارها حتى تأكل روابط الحيين جميعاً، ومن ثم تجد يهود مجالها الصالح الذي لا تعمل إلا فيه، ولا تعيش إلا معه فألف الله بين قلوب الحيين من العرب بالإسلام، وما كان إلا الإسلام وحده يجمع هذه القلوب المتنافرة، وما كان إلا حبل الله الذي يعتصم به الجميع فيصبحون بنعمة الله إخواناً.^{٥٤}

ويبين الأستاذ محمد الطاهر بن عاشور أثناء تفسيره لهذه الآية دور الاعتصام بالله والتمسك بدين الله في وحدة المسلمين الأوائل وبالتالي في وحدة أبناء أمة الإسلام في كل زمان وإلى قيام الساعة فيقول: يصور الله سبحانه حال المسلمين قبل إسلامهم ليحصل من استفظاعها انكشاف فائدة الحالة التي أمروا بأن يكونوا عليها وهي الاعتصام جميعاً بالإسلام الذي كان سبب نجاحهم من تلك الحالة، وفي ضمن ذلك تذكير بنعمة الله تعالى الذي اختارهم لهذا الدين، وفي ذلك تحريض على إجابة أمره تعالى إياهم بالاتفاق والتذكير بنعمة الله تعالى طريق من طرق مواعظ الرسل، كما قال سبحانه وتعالى حكاية عن هود: **أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ**

^{٥٤} سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، في ظلال القرآن، (دار الشروق، بيروت، ٥١٤١٢هـ)، ٤٤٢. محمود هاشم عنبر، الاعتصام بحبل الله بين الواقع والمبشرات، ١٠.

مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ^{٥٥} وَأَذْكُرُوا^{٥٦} إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ

بَصْطَةً^{٥٧} فَأَذْكُرُوا^{٥٨} آيَةَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴿٦٦﴾ (الأعراف / ٧ : ٦٩).^{٥٥}

وقال شعيب: وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

مَنْ ءَامَنَ بِهِ^{٥٩} وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا^{٦٠} وَأَذْكُرُوا^{٦١} إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ^{٦٢} وَأَنْظُرُوا^{٦٣}

كَيْفَ كَانَ عَنقَبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٧﴾ (الأعراف / ٧ : ٨٦). وهذا التذكير خاص بمن أسلم من

المسلمين بعد أن كان في الجاهلية لأن الآية خطاب للصحابة، ولكن المنة به مستمرة على سائر المسلمين، ذلك لأن كل جيل يقدر أن لو لم يسبق إسلام الجيل الذي قبله لكانوا هم أعداء، والخطاب للمؤمنين وهم يومئذ المهاجرون والأنصار، وكان جميعهم قبل الإسلام في عداوة وحروب فالأوس والخزرج كانت بينهم حروب دامت مائة وعشرين سنة قبل الهجرة ومنها كان يوم بعاث، ولقد حاولت حكماؤهم وأولو الرأي منهم التأليف بينهم، وإصلاح ذات بينهم بأفانين الدعاية من خطابة وجاه وشعر فلم يصلوا إلى ما ابتغوا حتى ألفت الله بين قلوبهم بالإسلام فكان الاعتصام بدين الله والالتفاف حول نبيهم سبباً في وحدتهم وأخوتهم.^{٥٦}

^{٥٥} محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، ج: ٨، ٢٠٤ - ٢٠٧.

^{٥٦} محمود هاشم عنبر، الاعتصام بحبل الله بين الواقع والمبشرات، ١١.

ومن الآيات الدالة على عظيم نعمة الله في تأليف قلوب المسلمين ووحدهم بسبب

اعتصامهم بدينهم قوله تعالى: **وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا**

أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٣٠﴾ **يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ**

حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣١﴾ (الأنفال/ ٨: ٦٣ - ٦٤) أي جمعها على

الإيمان بك وعلى طاعتك ومناصرتك ومؤازرتك بعد أن كانت بين الأنصار حروب طاحنة في الجاهلية فقطع الله ذلك بينهم بنور الإيمان.

لما كان بينهم من العداوة والبغضاء فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، بين

الأوس والخزرج، وأمور يلزم منها التسلسل في الشر حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان، كما قال تعالى:

وَأَعْتَصَمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً

فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ

مِّنْهَا ^ظ **كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴿١٣٢﴾ (ال عمران/ ٣: ١٠٣). وفي

الصحيحين: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خطب الأنصار، في شأن غنائم حنين، قال لهم:

«يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم

الله بي» كلما قال شيئاً قالوا الله ورسوله آمن، ولهذا قال تعالى: **وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ**

مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ ﴿١٣﴾ (الأنفال / ٨: ٦٣) أي عزيز الجناب، فلا يخيب رجاء من توكل عليه، حكيم في أفعاله

وأحكامه، وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا علي بن بشر الصيرفي

القزويني في منزلنا، أنبأنا أبو عبد الله محمد بن الحسين القنديلي الاسترابادي، حدثنا أبو إسحاق

إبراهيم بن محمد بن النعمان الصفار، حدثنا ميمون بن الحكم، حدثنا بكر بن الشروذ، عن محمد بن

مسلم الطائفي، عن إبراهيم بن ميسرة عن طاوس، عن ابن عباس، قال: قرابة الرحم تقطع، ومنه

النعمة تكفر، ولم ير مثل تقارب القلوب، يقول الله تعالى: **وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا**

فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

﴿١٣﴾ (الأنفال / ٨: ٦٣)، وذلك موجود في الشعر: إذا بت ذو قربي إليك بزلة فغشك واستغنى فليس

بذي رحم ولكن ذا القربي الذي إن دعوته أجاب وأن يرمي العدو الذي ترمي. قال: ومن ذلك قول

القائل: ولقد صحبت الناس ثم سرتهم وبلوت ما وصلوا من الأسباب فإذا القرابة لا تقرب قاطعاً وإذا

المودة أقرب الأسباب. قال البيهقي: لا أدري هذا موصول بكلام ابن عباس أو هو من قول من دونه

من الرواة، وقال أبو إسحاق السبيعي عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، سمعته يقول: "لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ" الآية، قال هم المتحابون في الله. وفي رواية نزلت في المتحابين في الله. رواه النسائي والحاكم في مستدركه وقال: صحيح، وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه، عن ابن عباس، قال: إن الرحم لتقطع، وإن النعمة لتكفر، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يرحزحها شيء، ثم قرأ "لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ" رواه الحاكم أيضاً، وقال أبو عمرو الأوزاعي: حدثني عبدة بن أبي لبابة عن مجاهد، ولقيته فأخذ بيدي فقال: إذا تراءى المتحابان في الله فأخذ أحدهما بيد صاحبه وضحك إليه، تحاتت خطاياهما كما يتحات ورق الشجر. قال عبدة: فقلت له: إن هذا ليسير، فقال: لا تقل ذلك فإن الله يقول: "لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ". قال عبدة: فعرفت أنه أفاقه مني، وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا ابن يمان، عن إبراهيم الجزري عن الوليد بن أبي مغيث، عن مجاهد، قال: إذا التقى المسلمان فتصافحا غفر لهما، قال قلت لمجاهد بمصافحة يغفر لهما؟ قال مجاهد: أما سمعته يقول: "لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ" فقال الوليد لمجاهد: أنت أعلم مني، وكذا روى طلحة بن مصرف عن مجاهد، وقال ابن عون عن عمير بن إسحاق، قال: كنا نتحدث أن أول ما يرفع من الناس الإلفة، وقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني رحمه الله: حدثنا الحسين بن إسحاق التستري، حدثنا عبيد الله بن عمر القواريري، حدثنا سالم بن غيلان، سمعت جعداً أبا عثمان، حدثني أبو عثمان النهدي، عن سلمان

الفارسي، أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: «إن المسلم إذا لقي أخاه المسلم فأخذ بيده، تحاتت عنهما ذنوبهما، كما يتحات الورق عن الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف، وإلا غفر لهما ذنوبهما ولو كانت مثل زبد البحار.^{٥٧}

والاعتصام بحبل الله وصية الله سبحانه وتعالى لرسوله وأتباعه الذين آمنوا معه، والذين منّ عليهم بنعمة الأخوة والمداية وآمنهم بعد خوف ويسرّ لهم إقامة دولة لهم على أرض المدينة المنورة بعد أن كانوا قلة مستضعفين، والتحذير من الفرقة والاختلاف وصية الله أيضاً لرسوله ولأمتة حتى لا يبدوا قوتهم ويضعفوا جمعهم ويصبحوا لقمة سهلة وصيداً ثميناً يتكالب عليهم الأعداء من كل حذب وصبوب فكانت هذه الوصايا الثمينة من الله للمسلمين الأوائل ولأمة الإسلام في كل زمان إلى قيام الساعة لما للاعتصام بحبل الله من ثمرات وما للفرقة والاختلاف من ويلات.

وللاعتصام بحبل الله ثمرات عظيمة في الدنيا والآخرة بيّنها الله سبحانه في كتابه وهي: أولاً، الامتثال لأمر الله: فاعتصم الأمة بحبل الله والالتفاف حول دينهم فيه امتثال لأمر الله وسمع وطاعة له والرضا بما ارتضاه، فالله سبحانه وتعالى لا يأمر إلا بخير ولا يحذر إلا من شر حين يقول: **وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۗ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ**

^{٥٧}سماويل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير ابن كثير، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٥م)، ج: ٢، ٨٩ - ٩٠.

انظر أيضاً محمود هاشم عنبر، الاعتصام بحبل الله بين الواقع والمبشرات، ١١.

النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ (آل عمران/ ٣):

(١٠٣). يقول الإمام الفخر الرازي حول معنى الاعتصام بحبل الله: "واعلموا أنه تعالى لما أمرهم بالالتقاء عن المحظورات أمرهم بالتمسك وبالاعتصام بما هو كالأصل لجميع الخيرات والطاعات وهو الاعتصام بحبل الله، واعلم أن كل من يمشي على طريق دقيق يخاف أن تتلق رجله فإذا تمسك بحبل مشدود الطرفين بجاني ذلك الطريق أمن من الخوف، ولا شك أن طريق الحق طريق دقيق، وقد انزلت أرجل الكثير من الخلق عنه، فمن اعتصم بدين الله وبنياهه يكون بذلك قد أطاع الله تعالى وامتلأ لأوامره ويأمن من الانزلاق عن طريق الحق، فكان المراد من الحبل ههنا كل شيء يمكن التوصل به إلى الحق في طريق الدين".^{٥٨} ومن هنا يتبين لنا أن طاعة الله تعالى والامتثال لأمره هي ثمرة من ثمرات الاعتصام بحبل الله. ثانياً، الهداية إلى صراط الله المستقيم: فالهداية إلى الحق ثمرة من ثمرات الاعتصام بحبل الله كما قال سبحانه: وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ

رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدِ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ (آل عمران/ ٣: ١٠١) اي

فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة في الهداية، والعدة في مباحة الغواية والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد، وحصول المراد". ويقول الإمام القرطبي: "ومن يعتصم بالله أي يمتنع ويتمسك بدينه

^{٥٨} أبو عبد الله محمد الرازي، مفاتيح الغيب، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ)، ج: ٨، ١٧٥ - ١٨٠. انظر

أيضاً محمود هاشم عنبر، الاعتصام بحبل الله بين الواقع والمبشرات، ١٣.

وطاعته فقد هدي أي وفق وأرشد إلى صراط الله المستقيم".^{٥٩} ثالثاً، الدخول في رحمة الله ونيل فضله

وهديته: وهي ثمرات الاعتصام بالله كما يقول سبحانه: **فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا**

بِهِ فَسَيَدْخُلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (النساء/ ٤):

(١٧٥). والمراد آمنوا بالله في ذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه واعتصموا به في أن يثبتهم على

الإيمان، ويصونهم عن نزغ الشيطان، ويدخلهم في رحمة منه وفضل، ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً

فوعده الله المعتصمين به بأمر ثلاثة: الرحمة والفضل والهداية، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الرحمة

الجنة، والفضل ما يتفضل به عليهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً

يريد ديناً مستقيماً.^{٦٠} رابعاً، استحقاق معية المؤمنين ومرافقتهم في الدارين: فهذه أيضاً شهادة من الله

لمن اعتصم بحبل الله وتمسك بدينه وأخلص عمله فيه بأنه مع المؤمنين كما يقول سبحانه: **إِلَّا**

الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَأَعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ

الْمُؤْمِنِينَ ^ط **وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا** (النساء/ ٤: ١٤٦). جاءت

هذه الآية الكريمة بعد الحديث عن المنافقين وما يستحقون من الله من عذاب يوم القيامة فهم أشد

^{٥٩}سماويل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير ابن كثير، ج: ٢، ٨٦. انظر أيضاً محمود هاشم عنبر، الاعتصام بحبل الله بين

الواقع والمبشرات، ١٣ - ١٤.

^{٦٠}أبو عبد الله محمد الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ١١، ١٢١. انظر أيضاً محمود هاشم عنبر، الاعتصام بحبل الله بين الواقع

والمبشرات، ١٤.

الناس عذاباً وفي الدرك الأسفل من النار إلا الذين تابوا منهم وأصلحوا عملهم واعتصموا بالله وأخلصوا لدينهم بحيث لم يشبه عملهم بتردد ولا تربص بانتظار من ينتصر من الفريقين المؤمنين والكافرين، فأخبر أن من صارت حاله إلى هذا الخير فهو مع المؤمنين وفي لفظ (مع) إيماء إلى فضيلة من آمن من أول الأمر ولم يصم نفسه بالنفاق لأن (مع) تدخل على المتبوع وهو الأفضل.^{٦١}

وفى الله سبحانه وتعالى أمة الإسلام عن الفرقة والاختلاف وحذر من الاكتواء بويلاتها مذكراً بما حصل للأمم السابقة من جراء فرقتهم ومحذراً من الويلات التي تنجم عن ذلك والتي من أخطرها:

أولاً، التشبه بالكافرين من أبناء الأمم الماضية: كما قال سبحانه: وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ

تَفَرَّقُوا وَأَخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ (ال

عمران/ ٣: ١٥) أي ينهى الله تبارك وتعالى هذه الأمة أن يكونوا كالأمم الماضين في افتراقهم واختلافهم وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قيام الحجة عليهم.^{٦٢}

^{٦١} محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، ج: ٥، ٢٤٤. انظر أيضا محمود هاشم عنبر، الاعتصام بحبل الله بين الواقع والمبشرات، ١٧.

^{٦٢} سماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير ابن كثير، ج: ٢، ٩١. انظر أيضا محمود هاشم عنبر، الاعتصام بحبل الله بين الواقع والمبشرات، ١٨.

ثانياً، الفشل وذهاب القوة: كما بين الله سبحانه وتعالى وهو ينهي عن الفرقة والتنازع والاختلاف أن مآل ذلك كله هو فشل الأمة وضعفها وهوانها على أعدائها وذلك في قوله:

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ^{٦٣} وَأَصْبِرُوا^ج إِنَّ اللَّهَ مَعَ

الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ (الأنفال / ٨ : ٤٦). والمعنى ولا تختلفوا فإن التنازع والاختلاف يوجب الفشل

والضعف والجن، وقوله تعالى: "وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ" يعني قوتكم.^{٦٣}

ثالثاً، الدخول في دائرة الشرك: حيث يبين الله سبحانه أن الفرقة والاختلاف هي صفة من صفات المشركين وينهى ويحذر أبناء الأمة من مغبة الوقوع في ذلك فيقول: * مُبَيِّنَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٦﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ

وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٦٧﴾ (الروم / ٣٠ : ٣١ - ٣٢). فالله عز

وجل هو الذي يصف المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، فالشرك ألوان وأنماط كثيرة، منهم من يشركون الجن، ومنهم من يشركون الملائكة، ومنهم من يشركون الملوك والسلطين، ومنهم من يشركون الكهان والأحبار، ومنهم من يشركون الأشجار والأحبار، ولا تنتهي أنماط

^{٦٣} أبو الحسن الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ)، ج: ٢، ٣١٧. انظر أيضاً

محمد هاشم عنبر، الاعتصام بحبل الله بين الواقع والمبشرات، ١٩.

الشرك وأشكاله، وكل حزب منهم بما لديهم فرحون، بينما الدين القيم واحد لا يتبدل ولا يتفرق، ولا يقود أهله إلا إلى الله الواحد.

والإنابة إلى الله والعودة في كل أمر إليه. وهي التقوى وحساسية الضمير ومراقبة الله في السر والعلانية والشعور به عند كل حركة وكل سكونة. وهي إقامة الصلاة للعبادة الخالصة لله. وهي التوحيد الخالص الذي يميز المؤمنين من المشركين. ويصف المشركين بأنهم كما قال تعالى: **مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا^ط كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ** (الروم/ ٣٠:

٣١). والشرك ألوان وأنماط كثيرة. منهم من يشركون الجن، ومنهم من يشركون الملائكة، ومنهم من يشركون الأجداد والآباء. ومنهم من يشركون الملوك والسلطين. ومنهم من يشركون الكهان والأخبار. ومنهم من يشركون الأشجار والأحجار. ومنهم من يشركون الكواكب والنجوم. ومنهم من يشركون النار. ومنهم من يشركون الليل والنهار. ومنهم من يشركون القيم الزائفة والרגائب والأطماع. ولا تنتهي أنماط الشرك وأشكاله.. و «كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ» بينما الدين القيم واحد لا يتبدل ولا يتفرق، ولا يقود أهله إلا إلى الله الواحد، الذي تقوم السماوات والأرض بأمره، وله من في السماوات والأرض كل له قانتون.^{٦٤}

^{٦٤} سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، في ظلال القرآن، ج: ٥، ٢٧٦٨. انظر أيضا محمود هاشم عنبر، الاعتصام بحبل الله بين الواقع والمبشرات، ٢٠ - ٢١.

رابعاً، تبرؤ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُمْ: فقد برأ الله سبحانه ورسول الله صَلَّى اللهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْحَابَ الْبِدْعِ الَّذِينَ تَفَرَّقُوا فِي دِينِهِمْ وَاخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: إِنَّ الَّذِينَ

فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ^ج إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا

يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ (الأنعام/ ٦: ١٥٩). فمعنى شيعاً: فرقاً وأحزاباً حيث أوجب الله براءة رسوله منهم

أي هؤلاء الذين تفرقوا واختلّفوا لست منهم يا محمد وهم ليسوا منك.^{٦٥}

^{٦٥} محمود هاشم عنبر، الاعتصام بحبل الله بين الواقع والمبشرات، ٢١.